# الكاف المتصلة بأسماء الإشارة
# في القرآن الكريم
## بين مطابقة المخاطَبِ ولزوم الإفراد
## دراسة دلالية


للدكتور/

**نصر سعيد عبد المقصود**

الأستاذ المساعد في قسم القراءات- كلية القرآن الكريم بطنطا

# الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم بين مطابقة المخاطب ولزوم الإفراد دراسة دلالية

**للدكتور/ نصر سعيد عبد المقصود**

الأستاذ المساعد في قسم القراءات– كلية القرآن الكريم بطنطا

**ملخص البحث**

وردت الكاف المتصلة باسم الإشارة في القرآن الكريم – على وجهين:

إما أن تكون مطابقة للمخاطب إفرادًا وتثنية وجمعًا، وتذكيرًا وتأنيثًا، وهذا هو الأصل، وهي اللغة الشائعة عند العرب، وإما أن تلزم الإفراد في مخاطبة الجمع أحيانًا، أو المثنى، وقد جاء ذلك في مواضع معدودة.

وهذا البحث المعنون ب(الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم بين مطابقة المخاطَبِ ولزوم الإفراد دراسة دلالية) يحاول الوصول إلى السر في مطابقته المخاطب كثيرا، و لزومه الإفراد أحيانا، و من أهم النتائج التي توصل إليها البحث أن اللغة التي اصطفاها القرآن الكريم في كاف الخطاب المتصلة باسم الإشارة هي لغة المطابقة، وأن ما ورد من لزوم الإفراد فله تأويله وتوجيهه وأغراضه، وليس على اللغة الأخرى التي تلزم الكاف الإفراد، وقد أوضح البحث الأدلة القاطعة على أن جواز الوجهين لغةً لا يُسَوِّغ ورودَهما في القرآن الكريم إلا لسر من أسرار البيان القرآني، و الدلالة اللغوية.

# Kaf–affixed demonstratives in the Quran; second person agreement or singularity? A semantic study

**Dr. Nasr Saeed Abdul Maksoud**

Assistant Professor in the Department of Readings - Faculty of the Holy Quran In Tanta

**Abstract**

Kaf is affixed to demonstratives in the Quran in two ways: The first is in agreement with the second person according to gender and number, and this is the mainstream dialect of the Arabs. The second is that it will always be singular regardless of the nature of the second person. This is encountered in a few instances.

In this study, thee researcher tries to explain the reasons behind this difference in Kaf–affixation. Results showed that the majority of instances in the Quran are that of agreement. The few cases of disagreement are special case that have special interpretations. The study shows that although Arabs used both dialects ; the agreement and the disagreement, the instances in the Quran are not just following the two dialects of the Arabs. Rather the disagreement instances are treated as special cases that need attention on the semantic level.

**Key words**: Second person Kaf – demonstratives – Quran

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي شمل أهلَ القرآن ببركته المتواترة، وخصَّهم بمزيد فضله في الدنيا و الآخرة، و كشف لهم بعض أسرار كتابه الزاخرة؛ إذْ علم ما في قلوبهم من صلاح القصد، وسلامة النية، فأذن لهم بتدارس ألفاظه وتراكيبه ومعانيه، وتدبرِ آياته ومراميه، وتلَمُّسَ مواضع العظمة فيه.

والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ خيرِ معلم، وأعظمِ موجِّه، وأفصحِ من تكلم، و أكرمِ من خُوطب، وأفضل من تدبر القرآن، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..وبعد،

فإن الله تعالى قد أنزل القرآن الكريم بلسان العرب، كما قال سبحانه:( وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ.عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (الشعراء/١٩٢-١٩٥).

و للعرب في كلامهم طرائقُ عديدةٌ، يُراعُون فيها اختلافَ المقام، و أحوالَ المخاطبين ومنازلَهم. فيُعطُون كلَّ ذي حقٍ حقَّه، من التعظيمِ والتبجيلِ والتوقيرِ، أو التصغيرِ، والتسفيهِ والتحقير.

وهذا بحث بعنوان: (الكاف المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم بين مطابقة المخاطَبِ ولزوم الإفراد دراسة دلالية)، يحاول الكشف عن بعض أسرار السياق القرآني في اصطفاء إحدى طرق العرب في الخطاب دون غيرها.

**أهمية البحث وأهدافه:**

تبدو أهمية هذا البحث في محاولة الكشف عن دلالة السياق القرآني في إفراد كاف الخطاب اللاحق باسم الإشارة في القرآن الكريم، عند مخاطبة الجمع،

والسر في مطابقته المخاطب في مواضع أُخَرَ؛ ليتجلى سموُّ النظمِ القرآني، في اختيار إحدى لغات العرب.

ويهدف البحث إلى الوصول إلى دلالة السياق في مطابقة المخاطب، أو لزوم الإفراد.

**حدود البحث:**

ويختص البحث بكاف الخطاب اللاحق باسم الإشارة دون غيره؛ فقد يطابق الخطابُ المخاطَبَ إفرادًا وتثنيةً وجمعًا، وتذكيرا، وتأنيثا، وقد يخاطَب الجمعُ بما يخاطَبُ به المفردُ، لغرض ينبئ عنه السياق، ويخبر عن كنهه المقام، أو لدلالة في حرف الخطاب ذاته، بها يتحول من معنى الخطاب إلى معنى آخر، تشير إليه القرائن اللغوية.

**أسباب اختيار البحث:**

من أقوى أسباب هذا البحث إيماني بإعجاز النظم القرآني، وسموه عن وقوع أمرين جائزين في اللغة لمجرد الجواز، بل لأن السياق يستدعي أحدهما في موضع، والآخر في موضع آخر، لاختلاف المقام، أو لسر من أسرار اللسان القرآني.

ومن بركات التدبر الجماعي للذكر الحكيم أن سألني أحدُ العلماء المشتغلين بعلوم القرآن الكريم- عن سر العدول عن خطاب الجمع إلى المفرد في اسم الإشارة (ذلك) في نحو قوله تعالى: ( إِنَّ فِي **ذَٰلِكَ** لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (البقرة/٢٤٨)، و(آل عمران/٤٩)، فالكاف في قوله:(ذلك) لخطاب المفرد، وقوله:(لكم) لخطاب الجمع؟

فرأيت أنَّ هذا السؤالَ مفتاحٌ لعدة أسئلة أخرى، يصلح الجواب عنها أن يكون بحثًا.

**منهج البحث:**

اتخذت المنهج الوصفي التحليلي في الدراسة، فقمت بحصر المواضع التي لحقت كاف الخطاب فيها باسم الإشارة في القرآن الكريم، معتمدا على الله تعالى في عدّها بنفسي؛ لما وجدته من كثير من المعاجم من قصور في حصر المواضع، وتقسيم هذه المواضع بحسب موافقة كاف الخطاب المخاطب أو لزوم الإفراد، و تتبع أقوال اللغويين والمفسرين في توجيه ذلك، ودلالة السياق في إفراد الخطاب أحيانا، موافقة المخاطب أحيانا أخرى، وتسجيل الملحوظات والنتائج .

**الدراسات السابقة:**

لم أرَ– على حد علمي– من أفرد هذا الموضوع بالدراسة، غيرَ أن هناك بعضَ الباحثين قد تعرضوا للحديث عن أسماء الإشارة في القرآن الكريم، و أنواع الكاف، ولم يعرجوا على ما نحن فيه، كالأبحاث الآتية:

١– اسم الإشارة في القرآن الكريم–مواقعه وأسراره البلاغية، رسالة دكتوراه، للباحث/ محمد عبد المنعم علي متولي.

٢– اسم الإشارة في القرآن الكريم دراسة تأويلية، رسالة دكتوراه، للباحث عمر محمد عوني.

٣– أسماء الإشارة في القرآن الكريم دراسة تطبيقية في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، للباحث/ برير محمد أحمد سناده.

٤- معاني الكاف في القرآن الكريم دراسة نحوية، بحث منشور في مجلة آداب الفراهيدي، جامعة تكريت، للباحث/أحمد عكاب الجبوري، العدد:٨، ٢٠١١م.

وقد خلت هذه الدراسات- مع أهميتها، وعظيم الجهد المبذول فيها- مما نحن فيه من موضوع الدراسة.

**مشكلة البحث:**

تتلخص مشكلة البحث في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- بم اختص الخطاب في أسماء الإشارة؟ و ما الفرق بينه وبين غيره من الخطابات؟

٢- ما المواضع التي وقع فيها حرف الخطاب اللاحق باسم الإشارة -في القرآن الكريم-مطابقا للمخاطب؟ وما المواضع التي لزم-فيها- الإفراد؟

٣- قد يوافق حرف الخطاب اللاحق باسم الإشارة مخاطبه في الإفراد أو التثنية والجمع، فما دلالة السياق في تلك الموافقة؟

٤- كيف وجَّه العلماء خطاب الجمع بالمفرد في الخطاب اللاحق باسم الإشارة؟

٥- هل ورد خطاب المفرد-في أسماء الإشارة- بما يخاطب به الجمع، كما هو شائع في لغتنا، من نحو خطاب الكبير والعظيم: أنتم تفضلتم به، وسعادتكم، و نحوه؟

٦- ما أثر السياق في لزوم كاف الخطاب اللاحقة باسم الإشارة- الإفرادَ مع خطاب الجمع في كثير من المواضع؟

ولا شك أن هذه المسائل- قبل الإجابة- تحتاج إلى تحرير وتحقيق وإنصاف وتجرد وتبرؤ من التكلف، فشرعت فيه متوكلًا على الله تعالى ومستعينًا به سبحانه، فجمعت مواضعَه، ووقفت طويلًا عند سياقات الآيات، أتدبرها، و أحاول جمع المتشابه اللفظي منها؛ و السر في إفراد الخطاب للجماعة أحيانًا، و مطابقتِه للمخاطب إفرادًا وتثنيةً وجمعًا وتذكيرًا وتأنيثًا، على الأصل.

واقتضت طبيعةُ البحث أن يكون في خمسةِ مباحث، يسبقها مقدمةٌ وتمهيدٌ، وتلحقها خاتمة.

**فالمقدمة:** ذكرت فيها أهمية البحث وأهدافه، وأسباب اختياره، وحدوده، ومنهجه، و الدراسات السابقة، ومشكلة البحث، وخطته.

**وفي التمهيد** ذكرت فيه أربع مسائل:

١- الكاف المتصلة باسم الإشارة بين التوصيف والتوظيف.

٢- استعمالاتها في لغات العرب، والقرآن الكريم.

٣- ما يختص به الخطاب اللاحق بأسماء الإشارة.

٤- دلالة السياق وأثرها في الخطاب القرآني.

**والمبحث الأول: خطاب النبي بالكاف المتصلة باسم الإشارة ودلالاته.**

**والمبحث الثاني: مطابقة الخطاب للمخاطب في اسم الإشارة و دلالاته.**

**والمبحث الثالث: موقف العلماء من إفراد كاف الخطاب في اسم الإشارة إذا خوطب به الجمع.**

**والمبحث الرابع: إفراد الخطاب في اسم الإشارة عند مخاطبة الجماعة ودلالاته.**

**والمبحث الخامس: إفراد الخطاب وجمعه في المقام الواحد، ودلالاته، وفيه أربعة مطالب:**

**المطلب الأول: إفراد الخطاب وجمعه في مقام التوحيد.**

**المطلب الثاني: إفراد الخطاب وجمعه في مقام الوعظ.**

**المطلب الثالث: إفراد الخطاب وجمعه في مقام الوعد والوعيد.**

**والمطلب الرابع: خطاب المدعُوِّين بين المطابقة والعدول.**

**ثم الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.**

**و اللهَ أسألُ أن يتقبل منا هذا العمل، و يغفر لنا ما كان فيه من زلل، وأن يرزقنا حسن الخاتمة!**

## التمهيد

أولا- الكاف المتصلة باسم الإشارة بين التوصيف والتوظيف:

لا خلاف بين العلماء[١] في حرفية كاف الخطاب اللاحق باسم الإشارة في نحو: (ذلك، و ذلكما، و ذلكم، وذلكنَّ)، فهو حرف، مبني، لا محل له من الإعراب، و ورد عن العرب في استعماله ثلاث لغات:[٢]

الأولى: استعماله استعمال الضمير في ( لكَ- بالفتح لخطاب المفرد المذكر، وبالكسر لخطاب المؤنثة، وبالضم وألف الاثنين للمثنى بنوعيه، وبالضم والميم لجمع الذكور، وبالضم ونون النسوة لجمع الإناث، فتقول: ذلكَ الكتاب يا زيد، و وذلكِ الكتابُ يا هندُ، وذلكما الكتابُ يا زيدانِ ويا بنتانِ، وذلكمُ الكتابُ يا طلاب، وذلكنَّ الكتابُ يا طالباتُ ).

والثانية: استعماله بصورتين: إحداهما بالفتح للمذكر بجميع أنواعه، والأخرى بالكسر للمؤنث بجميع أنواعه، فتقول: ذلكَ الكتاب يا زيد، ويا زيدان، ويا طلاب، وذلكِ الكتاب يا هند، ويا طالبتان، ويا طالبات.

والثالثة: لزومه الإفراد المذكر في جميع الحالات، فتقول في جميع الأمثلة السابقة: ذلكَ- بفتح الكاف- كأن المخاطب مفرد مذكر.

---

(١) وقد فصل أبو حيان الكلام في استعمالات كاف الخطاب، ينظر: ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي٢/١٠٦،١٠٥.

(٢) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، ٩١،٩٢/١، باختصار، تح: د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

هذا، وقد وصف العلماء اللغة الأولى بأنها الفصحى[١]، وأشهر اللغات وأسماها، ويحسن الأخذ بها وحدها؛ لأنه يساعد على زيادة الإيضاح ومنع اللبس[٢]، كما وصفت بالتصرف التام[٣]؛ يعنى مطابقة نوع المخاطب وعدده.

قال ابن علان: وجمع كاف الخطاب لجمع المخاطبين وهي في اللغة الفصيحة تختلف باختلافهم إفراداً وتذكيرًا وضديهما[٤].

وذكر بعض العلماء[٥] أن هذه لغة القرآن، واستدل بالآيات الكريمة، كما سيأتي.

واللغة الثانية وصفوها بالتصرف الناقص، يعني مع نوع المخاطب، من حيث التذكيرُ والتأنيثُ، وعدم مراعاة عدده، من حيث الإفرادُ والتثنيةُ والجمعُ.

و اللغة الثالثة جاءت للتنبيه على بعد المخاطب، بغض النظر عن نوع المخاطب من حيث التذكيرُ أو التأنيثُ، أو عددُه، من حيث الإفرادُ أو التثنيةُ أو الجمعُ.

و رتب بعض العلماء هذه اللغات إلى ثلاث مراتب: فالمرتبة الأولى المتصرفة تصرفاً تاماً، وهي التي تراعي المخاطب، في النوع والعدد.

---

(١) ينظر: المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري ١٨١/١، وارتشاف الضرب ١٠٦/٢.

(٢) من كلام عباس حسن، النحو الوافي ٣٢٤/١،هامش(٢)

(٣) السابق ذاته.

(٤) ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان، ٤٤٩/٦، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط: الرابعة، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م

(٥) ينظر: شرح ألفية ابن مالك للعثيمين ٥/١٢.

والمرتبة الثانية للمتصرفة تصرفاً ناقصاً، وهي التي تراعي المخاطب في النوع وحدَه.

والأخيرة غير المتصرفة مطلقا، التي تلزم حالة واحدة، الفتح والإفراد، فتبني على الفتح في جميع أحوال الخطاب[١].

ثانيا- استعمالات أسماء الإشارة مع كاف الخطاب في القرآن الكريم:

١- خطاب المفرد المذكر، مع لام البعد: (ذلك)، نحو قوله تعالى: { ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ } ( البقرة/٢) .

٢- خطاب المفردة المؤنثة، مع اسم الإشارة المذكر، نحو قوله تعالى: ({قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} [مريم/٢١].

٣- خطاب المفرد، مع اسم الإشارة للمثنى المذكر: (ذانك) ، نحو{ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ } ( القصص/٣٢ ).

٤- خطاب المثنى مع لام البعد: (ذلكما)، نحو قوله تعالى:{ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } ( يوسف/٣٧ ).

٥- خطاب جمع المذكر مع لام البعد :( ذلكم)، نحو قوله تعالى: { إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا } ( الأحزاب/٥٣ ).

٦- خطاب جمع المؤنث مع لام البعد: ( ذلكن)، نحو قوله تعالى: { قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ }( يوسف/٣٢).

٧- خطاب المفرد مع اسم الإشارة لجمع المذكر والمؤنث : (أولئك)، نحو قوله تعالى: { فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } ( النور/٥٢) .

---

(١) ينظر: عباس حسن، النحو الوافي ١/٣٢٤،هامش(٢)، بتصرف.

٨- خطاب الجمع مع اسم الإشارة لجمع المذكر والمؤنث (أولئكم)، نحو قوله تعالى : { وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا } (النساء/٩١ ).

٩- خطاب المفرد المذكر مع اسم الإشارة للمفردة المؤنثة: (تلك)، نحو قوله تعالى: { تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ } ( سورة البقرة/١٩٦ ).

١٠- خطاب المثنى مع اسم الإشارة للمفردة المؤنثة: (تلكما)، وهو قوله تعالى: { وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ } (الأعراف/٢١ ) .

١١- خطاب جمع المذكر مع اسم الإشارة للمفردة المؤنثة: (تلكم) ، وهو قوله تعالى : { وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ( الأعراف/٤٣ ).

ثالثا- ما يختص به الخطاب اللاحق بأسماء الإشارة:

لم يقع حرف الخطاب اللاحق باسم الإشارة-في القرآن الكريم- مجموعا في خطاب المفرد قطُّ !

فلم يرد في خطاب المفرد (ذلكم)، أو (تلكم) أو (ذانكم) أو (تانكم) أو (أولئكم)، ولو جاء مثل هذا لكان له وجه – في الظاهر- من التعظيم أو التوقير.

وإنما قلتُ: في الظاهر؛ لأنه الشائع في كلامنا من نحو قولنا لمن نعظمه ونحترمه: شكرا لكم، وبارك الله فيكم يا فلان.

وهذا في (غير أسماء الإشارة ) مختلَف فيه، ولا يجوز ألبتة في أسماء الإشارة، وإليك التفصيل:

(أ)- في غير أسماء الإشارة: اختلف اللغويون والمفسرون في جواز مخاطبة المفرد بصيغة الجمع، فذهب بعضهم إلى المنع وأنه لم يرد فيه سنة عن العرب، وأوَّلوا ما ورد على مخاطبة الجماعة لا المفرد.

كما ذهب آخرون إلى الجواز – وهو الراجح- مالم يكن ثمةَ لبسٌ، واستدلوا بما ورد في القرآن الكريم، وكلام العرب، فقد ذكر ابن فارس(ت٣٩٥هـ) في كتابه الصاحبي باب مخاطبة الواحد خطاب الجمع إذا أريد بالخطاب هو ومَنْ معه: قال الله جلَّ ثناؤه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} ٤ فخوطب -صلى الله عليه وسلم- بلفظ الجميع؛ لأنه أريد هو وأمّته. [١]

وذكر الإمام الثعالبي(٤٢٩هـ) في فقه اللغة:( في الجمع يراد به الواحد): من سنن العرب الإتيان بذلك، كما قال تعالى: (ما كان للمشركين أن يَّعمُرُوا مساجد الله)(التوبة/١٧) وإنما أراد المسجد الحرام، وقال عز وجل: (وإذْ قتلتم نفساً فادَّارءْتُم فيها) (البقرة/٧٢) وكان القاتل واحداً ا.هـ[٢]

وقال أبو حيان(٧٤٥هـ) في تفسير قوله تعالى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّه)(البقرة/١٩٩)، قِيلَ: إِبْرَاهِيمُ وَحْدَهُ، وَقِيلَ: آدَمُ وَحْدَهُ، وَهُوَ قَوْلُ الزُّهْرِيُّ لِأَنَّهُ أَبُو النَّاسِ وَهُمْ أَوْلَادُهُ وَأَتْبَاعُهُ، وَالْعَرَبُ تُخَاطِبُ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَهُ أَتْبَاعٌ مُخَاطَبَةَ الْجَمْعِ، وَكَذَلِكَ مَنْ لَهُ صِفَاتٌ كَثِيرَةٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

---

(١) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، ١٦٣،الناشر: محمد علي بيضون، ط: الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

(٢) ينظر: فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ص٢٢٨، تح: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط:الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

فَأَنْتَ النَّاسُ إِذْ فِيكَ الَّذِي قَدْ ... حَوَاهُ النَّاسُ مِنْ وَصْفٍ جَمِيلِ

وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ جُبَيْرٍ: مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسي[1]، بِالْيَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ) (طه/ ١١٥ )[2].

ويقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ) (المؤمنون/٩٩) : "وَضَمِيرُ الْجَمْعِ فِي ارْجِعُونِ تَعْظِيمٌ لِلْمُخَاطَبِ.

وَالْخِطَابُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِقَصْدِ التَّعْظِيمِ طَرِيقَةٌ عَرَبِيَّةٌ، وَهُوَ يَلْزَمُ صِيغَةَ التَّذْكِيرِ فَيُقَالُ فِي خِطَابِ الْمَرْأَةِ إِذَا قُصِدَ تَعْظِيمُهَا:أَنْتُمْ، وَلَا يُقَالُ: أَنْتُنَّ. قَالَ الْعَرَجِيُّ:

فَإِنْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ ... وَإِنْ شِئْتِ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا وَلَا بَرْدَا

فَقَالَ: سِوَاكُمْ، وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ عُلْبَةَ الْحَارِثِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ الْحَمَاسَةِ:

فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ ... لِشَيْءٍ وَلَا أَنِّي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَقُ

**فَقَالَ: بَعْدَكُمْ، وَقَدْ حَصَلَ لِي هَذَا –والكلام لابن عاشور– بِاسْتِقْرَاءِ كَلَامِهِمْ وَلَمْ أَرَ مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ".** [1] .

---

([1]) وهي قراءة شاذة، ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني١٩٩/١.

وزارة الأوقاف–المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط: ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م

([2]) ينظر: البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان ٣٠٢/٢.، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت

الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

**(ب)**- الخطاب في أسماء الإشارة: تتبعت جميع المواضع التي وقع حرف الخطاب اللاحق بأسماء الإشارة مجموعا، في القرآن الكريم، فلم أعثر على موضع واحد، خوطب فيه المفرد ب(كُم) التي هي للجمع، و لعل السر في عدم وقوع ذلك يكمن في أمرين:

أولهما: يتعلق بالكاف اللاحقة باسم الإشارة؛ حيث إنها حرف دال على بعد المخاطب، كما أنها تحمل معنى تنبيه المخاطب، و لا يتناسب هذا مع معنى التعظيم المراد من الجمع، فلا يقال: ذلكم الكتاب يا زيد، وأنت تريد تعظيم المخاطب وتوقيره.

ألم تر كيف حُذفَ حرفُ الخطاب، تأدبًا مع المخاطب، وقد وقع ذلك في مقام الأدب مع الله تعالى، في قوله تعالى – على لسان موسى عليه السلام: (قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي) (طه/ ٨٤)

أشار إليهم، ولم يأت بـ (كاف) الخطاب تأدبا مع الله، ولأنه سبحانه العليم، فلا يحتاج إلى تنبيه بها؛ إذ هو يخاطب العليم الخبير[٢].

وأما ما سبق من أمثلة في خطاب المفرد بالجمع–في غير أسماء الإشارة– فإن أدوات الخطاب ضمائر، لا حروف، ولا تحمل معنى التنبيه أو البعد.

ثانيهما: يتعلق باسم الإشارة الملحق به حرف الخطاب؛ فإن معنى الإشارة يكون مهيمنا على معنى اللفظ، حتى إنك لتظن أن(ذلك) كلمة واحدة، و(تلك) كذلك، وما لحق به من كاف الخطاب لا يخرجه عن معناه إلا أنه

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور ١٢٣/١٨، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

(٢) ينظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ٤٧٦٦/٩، دار النشر: دار الفكر العربي.

يشير إلى المخاطب، فإذا لحق به ما يشير إلى الجمع (كُمْ) كان جمعا، ولا يحتمل أن يكون المخاطب مفردا أبدا، بخلاف قولنا: شكرا لكم يا معلمي، فإن الخطاب في (لكم) ضمير، وقد سبق بحرف اللام الدالة على الاستحقاق، وهو من المعاني المرشحة لمعنى التعظيم الكائن في الضمير (كُمْ)، وليس فيه إشارة، وإنما هما كلمتان متعاضدتان في المعنى المراد، كما أننا نلحظ أن معنى البعد لا يفارق اسم الإشارة الملحق به كاف الخطاب، وإنما يزداد ذلك البعد بحرف اللام، نحو (ذلك)، واستعمال اسم الإشارة بهذا الوصف يراد به تنبيه المخاطب إلى هذا المعنى في المشار إليه وحده، والله أعلم.

رابعا– دلالة السياق وأثرها في الخطاب القرآني:

السياق:" هو مجموعة القرائن اللفظية والحالية الدالة على قصد المتكلم من خلال تتابع الكلام وانتظام سابقه ولاحقه به"[1]، فالمعنى المعجمي للكلمة جزء من معنى الكلام، ولكنه لا يثبت حتى يُنظر في السباق واللحاق و ملابسات المقام، و أحوال المتكلم والمخاطب.

وهذا التعريف مستنبط من تعريفات العلماء السابقين والمعاصرين، وقد قرر الزركشي ذلك بقوله: " ليكن محطُّ نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق

(1) أثر السياق في النظام النحوي على كتاب" البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري" للدكتور نوح الشهري ص: ٧٩.

له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز[١]، وقد صرح ابن حزم بأهمية السياق العام في فهم المعنى بقوله:

"الحديث والقرآن كله لفظة واحدة، فلا يحكم بآية دون أخرى، ولا بحديث دون آخر، بل بضم كل ذلك بعضه إلى بعض؛ إذ ليس بعضُ ذلك أَولى بالاتِّباع من بعض، ومَن فعل غيرَ هذا، فقد تحكَّم بلا دليل"[٢].

لهذه النظرة الثاقبة بسطتُ مادَّة البحث على بساط الفكر، وضممت السياقات المتشابهة؛ حتى أستطيع الوفاء بما وعدت به من الإجابة على أسئلة البحث، ومن الله أستمد العون والتوفيق!

(١) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي، ٣١٧/١.، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

(٢) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم الأندلسي، تح: الشيخ أحمد محمد شاكر ، (١١٨/٣)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

## المبحث الأول

## خطاب النبيﷺ بالكاف المتصلة باسم الإشارة ودلالاته

نزل القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد ﷺ، فكان أولَ من خوطب به، وهذا الذي جعل بعض العلماء يحملون كل خطاب للمفرد المذكر في اسم الإشارة من نحو (ذلكَ)- على أنه خطاب للنبي ﷺ. غيرَ أن خطابات القرآن متنوعة، فمنها ما يخص المؤمنين، ومنها ما يخص الكافرين أو المنافقين أو أهل الكتاب أو غيرهم.

وكثير من المواضع تخص النبيﷺ بالخطاب؛ إذ إنه المخاطب الأول بهذا القرآن الكريم، ويمكن دخول غيره من المخاطبين فيه، ولذا فهو نوعان:

**أحدهما:** خاص بالنبي-ﷺ- ولا يتعداه إلى غيره، لخصيصة من خصائصه، أو لغرض شرعي، كقوله تعالى:( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) (آل عمران/ ٤٤)، و قوله تعالى: (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) ﴿آل عمران/٥٨﴾.

**والآخر:** خطاب خاصٌّ يراد به عموم المكلفين، وهو كثير، كقوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)﴿البقرة/٢﴾، وقوله تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ) ﴿ النساء/١٣﴾، وقوله تعالى: (فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) ﴿التوبة/٦﴾،

ويدخل في هذا خطاب كل مخاطب بهذا القرآن الكريم، كقوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا **فَأُولَئِكَ** أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ

الـرَّحِيمُ)﴿البقرة/١٦٠﴾، وقولـه تعـالى: (إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ **أُولَئِكَ** هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)﴿البينة/٧﴾.

هذا، وقد اتصلت الكاف– في هذا المقام– بثلاثة من أسماء الإشارة، وهي: (ذلكَ وتلكَ وأولئكَ)، وكان لهذا الخطاب دلالات، تستنبط من سياق الآيات على النحو الآتي:

**أولا– خطابه المتصل باسم الإشارة (ذلك):**

في قوله تعالى: (ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ) (البقرة/٢).

والخطاب في (ذلك) للأمة جميعها، ولكل مخاطب بهذا القرآن، ولاشك أن رسول الله  أول من خوطب به، ويكون تثبيتًا لفؤاده، وإنجازًا لوعده سبحانه، أي: ذَلِك الْكتاب الَّذِي وعدتك يَا مُحَمَّد أَن أنزلهُ عَلَيْك على لِسَان الَّذين قبلك، كما يفهم ذلك من كلام السمعاني.[١]

وفي قوله تعالى: (وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ)﴿البقرة/١٨٧﴾

فأشار إلى الأحكام السابقة، وأفرد الخطاب في (كذلك)، ولم يقل (كذلكم)؛ لأن الخطاب هنا للنبيﷺ، و لكل مخاطب بهذا القرآن .

ولما كان أمر الصيام وما تعلق به من منهيات كالأكل والشرب والجماع ودواعيه– مبنيا على مراقبة العبد ربه، وخشيته بالغيب، وقع الخطاب للمفرد وليس للجمع؛ ليلفت الانتباه إلى الرقابة الإلهية، وأن كل مخاطب واضحٌ أمرُه، وظاهرٌ حالُه، فلا يخفى على الله منهم شيء.

---

(١) ينظر: تفسير القرآن، للسمعاني، ٤٢/١، تح: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض – السعودية،ط: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

و قوله تعالى: (فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ) ﴿البقرة/١٩١﴾

إفراد الخطاب في اسم الإشارة يحمل على أنه للنبي ﷺ ، وفائدته: بيان أهمية الأمر، وعظم القتل، وأنه لابد له من الرجوع إلى المشرِّع، ليقيمه بشروطه، وليس لأي أحد.

وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (يونس/٦٧)، الخطاب في (ذلك) للنبي-ﷺ- وفيه تسلية له عما يلاقيه من كفرهم وعنادهم، فمن لم يسمع سماع استجابة من هؤلاء المعاندين، و لم يرْعَوِ من هذه الآيات الكونية مع جلائها وظهورها- فلا تحزن عليه ولا تك في ضيق من كفره وعناده، فلن يضر الله شيئا.

وقوله تعالى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) ﴿إبراهيم/١٤﴾.

خطاب لجمع الرسل، أو للنبي ﷺ، ولكل مخاطب، وفيه تخصيص للمؤهلين لسكنى الأرض بعد التعميم، ويمكن أن يكون إفراد الخطاب لقلة السالكين طريقَ خوفِ مقام الله ووعيده.

وقوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ﴿النحل/١١٩﴾.

خطاب للنبي ﷺأو لكل مخاطب، وفي إفراد الخطاب مزيد إكرام، وعظيم إنعام؛ حيث إن الكريم-جل وعلا- أخبر عنهم بضمير الجمع في عمل السوء، و أفرد الخطاب المتصل باسم الإشارة بعدما تابوا و أصلحوا، رفعا للحرج عنهم، وتكريما للتائبين المصلحين منهم.

في قوله تعالى: (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى) ﴿طه/٥٤﴾.

(ذلك) إشارة إلى ما ذكر من شؤونه تعالى، وأفعاله، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته، وبعد منزلته في الكمال، وقيل: لعدم ذكر المشار إليه بلفظه[1]. والخطاب في (ذلك) للنبي ﷺ لكل من ينتفع بهذه الآيات.

وجاء الخطاب في (ذلك) مفردا دلالة على ما يأتي:

١- زيادة في كمال الإنعام، فإن إيصال النعمة إلى كل فرد، ومخاطبته لدليل على عظمة الله تعالى، وسعة علمه، كما قال سبحانه:( لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى) (طه/٥٢).

٢- كما يدل على كمال العناية بالإنسان، وتكريمه على سائر المخلوقات.

٣- كما أن في إفراد الخطاب مراعاة لقلة المنتفعين به، وهم أولو النهى.

في قوله تعالى: ( وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم/٢١).

الإشارة في قوله:(ذلك) إلى ما سبق من خلق الأزواج للسكن إليها، وجعْل المودة والرحمة بينهم.

وجاء الخطاب في اسم الإشارة مفردا، ويمكن أن يكون للنبي ﷺ، أو لكل مخاطب بهذا القرآن، وقد يكون الخطاب لكل فرد منعم عليه بتلك النعم المذكورة ليتفكر فيها، ويشكر ربه عليها.

---

(1) روح المعاني٨/٥١٩.

ولعل في إفراد الخطاب مراعاة خصوصية السكن والمودة والرحمة بين الزوجين، وأن هذه النعمة مما ينبغي أن يحافظ عليها الزوجان، ولا يكشفان سترها، وسرائرها.

وقوله تعالى: (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِلْعَٰلِمِينَ) ﴿الروم/٢٢﴾

والخطاب في (ذلك) للنبي ﷺولكل مخاطب بهذا القرآن، وقد يكون مراعاة لكل عالم متفكر(على قراءة العالِمين بكسر اللام)[1].

وقد يكون إفراد الخطاب دالا على شدة ظهور هذه الآيات للعالمين (بفتح اللام أو بكسرها)، بحيث لو نظر مَن بالمشرق والمغرب جميعًا لرأوها رأيَ العين، فهي ماثلةٌ أمام عينَي كلِّ ناظرٍ.

و قوله تعالى:(إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) ﴿الأحزاب/٦﴾

والإشارة في (ذلك) لأولوية ذوي الأرحام بعضهم لبعض، والخطاب في (ذلك) للنبي ﷺ، ولكل مخاطب بهذا القرآن.

و قوله تعالى:( يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا )﴿الأحزاب/٣٠﴾

الخطاب في (ذلك) للنبي ﷺ، ولكل مخاطب بهذا القرآن، لبيان عدل الله تعالى وحكمته البالغة.

---

(١) (العالَمين) بفتح اللام قراءة الجمهور، جمع عالَم، من الجن والإنس، وبكسرها رواية حفص عن عاصم، جمع عالِم؛لأنه المنتفع بالآيات، ينظر: التيسير ١٧٥، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٣٤٤.

**ثانيا- الخطاب المتصل باسم الإشارة (تلك):**

وقد ذكر إحدى وأربعين مرة، وكان الخطاب في أكثرها للنبي  كما في الآيات الآتية:

قوله تعالى: (تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ) (البقرة/٢٥٢)

قوله تعالى:(تِلْكَ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ) (آل عمران/١٠٨)

قوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَاصْبِرْۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود/٤٩). فالخطاب هنا للنبي ﷺ.

وقد يكون الخطاب له ولغيره من المؤمنين، كما في قوله تعالى: (تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) (يوسف/١) وغيره من الآيات.

كما قد يكون الخطاب لمعيَّن يبينه السياق، كما في خطاب فرعون من قِبَل موسى(عليه السلام) بقوله: (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء/٢٢).

**ثالثا- الخطاب المتصل باسم الإشارة (أولئك):**

وقد وردت في أربعة ومائتي موضع في القرآن الكريم، وجاء الخطاب المتصل باسم الإشارة (أولاء) للنبي ﷺ في جميعها، وقد يدخل في بعضها كل مخاطب بهذا القرآن.

**و ثمة تنبيه مهم** تجدر الإشارة إليه، وهو أن المشار إليه جمع في اسم الإشارة (أولاء)، والمخاطب واحد، فإنه مهما يختلفْ المشار إليهم، فإن المخاطب فرد واحد.

فقد أشير إلى المؤمنين والأنبياء في (واحد وتسعين) موضعا، وأشير إلى الكافرين والمنافقين وأهل الكتاب في (سبعة ومائة) موضع، وأشير إلى الكاذبين والظالمين والمعتدين والخاسرين في (خمسة) مواضع، وأشير إلى أدوات العلم من السمع والبصر والفؤاد في موضع وحيد، وهو قوله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ **أُولَٰئِكَ** كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسراء/٣٦).

هذا، وقد يأتي حرف الخطاب–في الذكر الحكيم– مطابقًا للمخاطب إفرادًا وتثنيةً وجمعًا، وتذكيرًا وتأنيثًا، وهو جائز في اللغة، فما وجه المطابقة؟ وما أثر السياق فيها؟

هذا ما يتناوله المبحث التالي.

## المبحث الثاني

## مطابقة كاف الخطاب للمخاطب ودلالاته

ورد الخطاب اللاحق باسم الإشارة مطابقا لحالة المخاطب كثيرا في القرآن الكريم، سواء أكان مذكرا أم مؤنثا، وسواء أكان مفرداً أم مثنى أم جمعاً، على النحو الآتي:

**أولا – المفرد بنوعيه (ذلكَ – ذلكِ– تلكَ– ذانك– أولٰئك):**

**المفرد المذكر:** فقد ورد حرف الخطاب مفتوحًا متصلًا باسم الإشارة (ذلكَ) تسعين وثلاثَمائة مرة، و هو الأكثر ورودًا في القرآن الكريم[١]؛ كما ورد (تلكَ) إحدى وأربعين مرةً، وورد (ذانِكَ) مرة واحدة، وورد (أولئكَ) في أربعة ومائتي موضع، وقد وقع أكثرها موافقا للمخاطب[٢]، و يمكن توجيه المفرد المذكر بتوجيهات ثلاثة :

**الأول:** خطاب النبي–صلى الله عليه وسلم، أو كل مخاطب بهذا القرآن، وقد سبق الكلام عنه.

**الثاني:** خطاب مَن يحدده السياق، كقوله تعالى: ( وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِّ **فَذَانِكَ** بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)(القصص/٣٢).فالخطاب لموسى –عليه السلام.

---

(١) قمت بإحصائها بنفسي؛ لما وجدت من أخطاء في كثير من المعاجم؛ فقد خلط معجم المعاني الموجود على الشبكة العنكبوتية بين (ذلك) (ذلكم)، فوضع بعض المواضع مكان بعض.

(٢) وافق حرف الخطاب في جميعها المخاطب، ما عدا لفظَ (ذلك) فهناك أربعة وأربعون موضعًا تحتاج إلى بيان؛ لعدوله عن الجمع، وسيأتي بيانها بعدُ إن شاء الله تعالى!

**الثالث:** لا يقصد به الخطاب، وإنما يأتي للفصل بين كلامين، أو بين وجهَي كلام واحد، ومنه قوله تعالى: (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ) (الحج/٣٠)، وقوله: (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) (الحج/٣٢)، وقوله: (ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ) (الحج/٦٠).أي: الأمر والشأن هذا.

ويمكن في مثل هذا النوع أن يقال إن (ذلك) اسم إشارة مثل (هذا)، والفرق أن الأول للبعيد، والآخر للقريب، والكاف حرف جيء به لتعلقه بلام البعد؛ إذ إن اللام لا تلحق ب(ذا) إلا بالكاف، بخلاف الكاف فإنها تتصل ب(ذا) دون اللام فيقال: (ذاك).ومن خلال ما سبق يمكننا إجمال الأغراض التي من أجلها طابق الخطاب المخاطب المفرد المذكر، على النحو الآتي:

أولا- تعليم المخاطب الأول بهذا القرآن الكريم، وهو رسول الله-ﷺ؛ لأنه المبلغ عن ربه، وفيه إشارة لطيفة إلى المخاطبين الآخرين أنِ(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

ثانيا- خطاب كل مخاطب على حدتِه؛ ليهتمَّ بالأمر المشار إليه؛ وليعلمَ أنه المقصودُ بالخطاب، فتقوى عزيمته على العمل والاستجابة؛ حتى لا يظنَّ أنه مُلحق بهم، فلم يُعْبأْ به، أو أنه غير داخل في المخاطبين أصلا، فتنطفئَ جذوةُ هِمَّتِه، فيقعدَ مع القاعدين.

ثالثا- خطاب مفرد يحدده السياق، لمزيد العناية به، وأخذ العبرة والعظة منه.

**المفرد المؤنث:**

ورد خطاب المفرد المؤنث اللاحق باسم الإشارة في ثلاثة مواضع، هي:

قوله تعالى: (قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) ﴿آل عمران/٤٧﴾، وقوله تعالى:(قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) ( مريم/٢١)، وقوله تعالى: (قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) ﴿ الذاريات/٣٠﴾.

ومن خلال الآيات الثلاث السابقة يمكننا استنباط ما يأتي:

**أولًا**– ورد خطاب المفرد المؤنث في الآيات الثلاث مطابقا للمخاطب، ولم ترد فيه قراءات أخرى، لا في المتواترة ولا في الشاذة.

**ثانيًا**– اتفق ظاهر الكلمة في مواضعها الثلاثة من حيث دخولُ كاف التشبيه على اسم الإشارة.

وتأتي الكاف هنا قبل اسم الإشارة (كذلك) لتحقيق المعنى وتثبيته .

ولعل السر في المجيء بكاف التشبيه هنا هو بيان تمام المطابقة بين الحقيقة الخارجية والحقيقة الكلامية، أي أن ما يكون في الواقع يطابق ما دل عليه الكلام[١].

**ثالثا**– اتفق سياق الخطاب في المواضع الثلاثة، من حيث بشارةُ الملائكة لامرأة صالحة بالولد، فآيتا آل عمران ومريم وردتا خطابا لمريم– عليها السلام، واختُصت بالخطاب لأنها بشارة عجيبة؛ إذ كيف تلد ولم يمسسْها بشرٌ، وهي المرأة الوحيدة التي ذكر اسمُها صريحًا في القرآن الكريم؛ لأن قضيتها فريدة من نوعها، وسيكون لها شأن عظيم، إذ إن ولادتها لعيسى عليه السلام، من غير أب جعلها وابنها آية للعالمين، فكان خطابها بكاف

(١) ينظر: كذلك في القرآن الكريم، أحمد بدوي، مقال في مجلة الرسالة ، العدد٨٨٠.

الخطاب المكسورة اللاحقة باسم الإشارة (كذلكِ) مؤكِّدا لها أنها المقصودة من الخطاب الإلهي العظيم، وأن الأمر في ذلك كله لله رب العالمين.

و آية سورة الذاريات وردت خطابا لسارّة امرأة إبراهيم عليهما السلام، وهي بشارة عجيبة أيضا؛ إذ كيف تلد وهي عجوز، وبعلها شيخ كبير؟!

فكان خطاب المفردة المؤنثة هنا مقصودا لإزالة ما في نفس المخاطبة من تعجب، أو دهشة، أو خوف؛ بسبب ما يحمله المشار إليه من قضاء إلهي عجيب، كما أن خطابها يرفع من مكانتها عند الله تعالى، وتزداد به شرفًا، وتزدان به بين قريناتها، وتكون بشارتها بالولد بعد ذلك فضلة.

**ثانيا- خطاب المثنى (ذلكما – تلكما):**

ورد (ذلكما) في موضع واحد، و هو قوله تعالى:(ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) (يوسف/٣٧).

معنى الإشارة هنا أي: هذا الذي أذكر أني أعلمه من تعبير الرؤيا، مما علمني ربى فعلمته[١]

إشارة لهما إلى التأويل، أى: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، وأوحى به إلىّ، ولم أقله عن تكهن وتنجم[٢]،" ومعنى البُعد في ذلك للإشارة إلى علو درجتِه وبُعد منزلتِه" [٣].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري١٦/١٠١، تح/ أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط:٣ – ١٤٠٧ هـ/٤٧٠.

(٣) تفسير أبي السعود٤/٢٧٧، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

وخطابهما معا من أسلوب الداعية، لإظهار الاهتمام والعناية بهما؛ حتى لا ينصرف ذهن واحد منهما إلى أن ذلك كهانة أو تنجم.

ونلحظ في إلحاق خطاب المثنى باسم الإشارة مزيدَ العناية بإفهام المخاطبَيْنِ معا الأمرَ المشار إليه؛ حتى لا يكونَ للشيطان عليهما من سبيل، فيقذفَ في قلوبهما شرًا، أو سوءَ ظنٍّ بالمتكلم، وهذا من فطنة الداعية؛ حيث إنه ادَّعى أمرًا عجيبًا، فلو لم يحترس بخطابهما معا بقوله:( ذلكما مما علمني ربي) لوقع المخاطبان أو أحدهما في دهشة وتعجب، قد تكون صارفةً لهما عن قبول دعوته بالكلية، وهذا مْن حِرْصِ الداعية على هداية المدعُوّين.

**خطاب المثنى ب(تلكما):**

ورد في موضع واحد، في قوله تعالى:(وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ) (الأعراف/٢٢).

فالإشارة ب(تلك) للمفردة المؤنثة البعيدة، وهي الشجرة، واللام فيه للبعد، و( كُما ) لخطاب المثنى، وهما آدم وحواء–عليهما السلام.

وتتجلى دلالات الخطاب هنا مع الإشارة، إذا وقفنا مع أحد البدائل اللغوية الأخرى، كأن يوضع (هذه)، أو (تلك) موضع (تلكما)، ثم ننظر الفرق!

نلحظ أن القرآن الكريم استعمل (هذه) عند النهي عن الشجرة، في قوله تعالى:( وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ) في موضعي البقرة:٣٥، والأعراف:١٩، في حين استعمل (تلكما) عند العتاب والتوبيخ بعد أكلهما من الشجرة.

لأن النهي عن القرب منها، يناسبه اسم الإشارة للقريب(هذه)، كما يناسبه التنبيه في أوله(ها)، وانفصال اسم الإشارة عن حرف الخطاب يتناسب مع حال المخاطبين عند النهي؛ إذْ كانا منفصلَيْنِ عنها، ولمَّا يذوقا ثمرَها، فهذه

ثلاثة أمور مجتمعة في الإشارة عند النهي، (القرب، والتنبيه، وانفصال المشار إليه عن المخاطب).

والمراد النهي عن الأكل من ثمرها، وإنما تعلق بالقرب من الشجرة إيذانا بشدة النهي، ومبالغة في التأكيد، و يشهد بذلك قوله تعالى: "فلمَّا ذَاقَا الشَّجرةَ بَدتْ لهُمَا سوآتُهُما" (الأعراف/ ٢٢).

وذلك النهي يقتضي تبيانَها لهما، للتعرف عليها عن قُرْب، والتحقق من أوصافها، فالنهي عن أمر يتضمن العلمَ به، فكما أن الحكمَ على الشيء فرع عن تصوره، فكذلك النهي عن أمر فرع عن العلم به، (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ)(الأنفال/٤٢).

ولكن الشجرة لَمَّا تزَلْ صورتُها حاضرةً قريبة، حتى وسوس لهما الشيطان، ونسيا العهد، ( فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ)(الأعراف/٢٢). وحين تلاشت صورتُها، ونَسِي آدمُ وحواء ذلك العهد، أشير إليها باسم الإشارة الذي للبعيد.

وكان يكفي–في غير القرآن– أن يشار إليها ب(تلك)، ولا داعي– حسب الظاهر–إلى خطاب آدم وحواء؛ لذكره قبل ذلك، وبعده، فهو معروف من السياق!

بيد أن النظمَ القرآنيَّ المعجز لم يكتفِ بالإشارة إلى الشجرة القريبةِ قربَ معرفةٍ وبيانٍ وعلمٍ، كما في النهي الأول(هذه)، ولم يكتفِ–كذلك– بالإشارة إلى الشجرة البعيدة وحدَها(تلك)، ولكنه ضم إلى اسم الإشارة مخاطبتَهما معًا؛ ليصور حالهما بعد مخالفتهما النهي الإلهي نسيانًا وضعفًا.

فالشجرة المنهي عنها لا تزال آثارُها فيهما، وإن بدت هي بعيدةً عنهما.

ففي (تلكما) اتصال بين المشار إليها والمخاطب المنهي عن قُرْبِها- فضلًا- عن الأكل من ثمرها، دلالة على بعدهما عن الشجرة عَقِيبَ أكلِهما، إما بعدًا حقيقيا- وهو ظاهر القرآن- وإما بعدا مجازيًّا؛ بسبب التبرؤ منها؛ لأنها كانت سبب إبعادهما، أو بسبب المعصية.

كما أن اتصالَ حرفِ الخطابِ باسمِ الإشارةِ إشارةٌ إلى ذوبانِ آثارِ المشار إليه (الشجرة) في المخاطَبَيْنِ(آدم وحواء)، وتأثيرِه عليهما، (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا)، والله أعلم.

و حيثما رأيتَ النظم القرآني قد ضم حرفَ خطابِ المثنى أو الجمعِ لاسم الإشارة، فإنه يشير من طرف خفي إلى بيان أثر المشار إليه في المخاطب، وفيما سبق شاهدا عدلٍ على ذلك، وفيما يلي شواهد أخرى.

**ثالثا- خطاب جمع المذكر (ذلكم – تلكم –أولئكم):**

**أما (ذلكم)** فقد وردت سبعا وأربعين مرة في القرآن الكريم، وقد يبدو الغرض من خطاب الجمع واضحًا في حال اجتماع (ذلك) و (ذلكم) في سياق واحد، و قد اجتمعا في موضعين:

أولهما: في قوله تعالى: { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ **ذَٰلِكَ** يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ **ذَٰلِكُمْ** أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة:٢٣٢).

ف(ذلك) خطاب المفرد، و(ذلكم) للجمع، وهذا الموضع مهم في بيان الفرق بين الخطابين، فالأول روعي فيه المشار إليه، وعدم وقوع أثره بعدُ على

المخاطب، فجاء مفردا، كما أن فيه إشارة إلى إفراد الوعظ لولي المرأة ليكون أنسب وأنفع، و أما الجمع (ذلكم) فلمناسبة الانتهاء من الوعظ، وما ينبغي أن يكون لدى الأولياء وغيرهم من التزكية والتطهر ونقاء السريرة، كما أنه يشمل المخاطبين جميعا.

والمشار إليه في (ذلك) لَمَّا لم يكن له أثر في المخاطب اكتُفي ببعد المشار إليه، ولم يلحقه حرف الخطاب الجمعي، فلما انتهى الوعظ جاء بحرف الخطاب جمعًا لبيان الحالة التي ينبغي أن تكون عليها النفوس بعد هذا الوعظ البليغ، فقال:(ذلكم).

وهذا الأثر ظاهر في قوة اللفظ، وصوته، وجرس الميم وإحكام ضم الشفتين بها، دلالة على أثر المشار إليه في المخاطب، وشدة تعلقه وارتباطه به.

والموضع الآخر الذي اجتمع فيه (ذلك) و(ذلكم) في قوله تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (آل عمران/١٤،١٥)

أشير إلى ما سبق من متاع زائل، و جاء اسم الإشارة هكذا: (ذلك) للدلالة على بعد المشار إليه و تركيز السياق عليه، دون الالتفات إلى المخاطب، وهذا على رأي من جعل اللفظ كله للإشارة.

أو أن الخطاب فيه للمخاطب الأول بهذا القرآن، وهو النبي ﷺ؛ لأنه المبلغ الأول للناس، بقرينة خطابه بعدها بقوله: (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم)، و هو الراجح عندي.

فهذا حال المشار إليه قبل إنبائهم بما هو خير منه؛ حيث إنه جاء فريدا دون تعلق بمخاطب، أو مفردا لا جمعا.

فلما وقع الإنباء من سيد الأنبياء ﷺ، وصار للمشار إليه أثر في نفوس المخاطبين، التحم اسم الإشارة بحرف الخطاب الجمعي (ذلكم)؛ لتنبيههم إلى أمر عظيم، ينبغي ألا يتخلف عن سماعه أحد، ألا وهو جزاء المتقين، وهو دخول الجنة، ونيل رضوان الله تعالى.

و كما قيل: وبضدها تتميز الأشياء، والضد يظهر حسنَه الضدُّ.

كما نلحظ وقوع (ذلكم) ثلاث مرات في آية واحدة، ولم تتكرر في آية أخرى، وهو قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ **ذَٰلِكُمْ** كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ الْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ **ذَٰلِكُمْ** أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ **ذَٰلِكُمْ** كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا) (الأحزاب/٥٣).

و هو خطاب للمؤمنين، أن يلزموا الأدب مع النبي ﷺ، فلا يدخلوا بيوت النبي إلا إذا دُعوا إلى طعام، ولا ينبغي أن يدخلوا إلا بعد نُضجه وتَهيئتِه، لا قبله، ولا يسألوا أزواج النبي ﷺ شيئًا إلا من وراء حجاب؛ حتى لا يؤذوا رسولَ الله ﷺ في نفسه، أو أهلِه أمهاتِ المؤمنين.

فالإشارة الأولى: (إِنَّ **ذَٰلِكُمْ** كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ) إلى أضداد الأوامر والنواهي المذكورة، من الدخول بغير إذن، أو دون دعوة، أو قبل نضج الطعام بزمن، أو الجلوس بعد انقضاء الطعام.

والإشارة الثانية: (**ذَٰلِكُمْ** أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) إلى سؤالهن من دون حجاب.

والإشارة الثالثة: (إِنَّ **ذَٰلِكُمْ** كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا) إلى إيذائه ﷺ، أو نكاح أزواجه من بعده.

وهذا يدل على أن (ذلكم) لا تقع إلا في أمر عظيم، أو مهم، أو ثقيل، ولذلك ختمت الآية الكريمة بقوله:( إِنَّ **ذَٰلِكُمْ** كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا).

وثقل اللفظ هنا يناسب ثقل الموقف الذي من أجله نزلت الآية الكريمة[1] ، قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ: هَذِهِ الْآيَةُ أَدَبٌ أَدَّبَ اللَّهُ بِهِ الثُّقَلَاءَ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي عَائِشَةَ: حَسْبُكَ مِنَ الثُّقَلَاءِ أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَحْتَمِلْهُمْ [2].

ومما يدل على أن خطاب الجمع المتصل باسم الإشارة (ذلكم) يكون في الأمور العظيمة أو المهمة وقوعه في تذييل الوصايا العشر التي روى فيها

---

([1]) فقد أخرج البخاري وَغَيْرِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ صَنَعَ طَعَامًا بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ وَدَعَا الْقَوْمَ فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ وَقَعَدَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَجَاءَ النَّبِي لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ، فَجَعَلَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ ... فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ يُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَيُسَلِّمْنَ عَلَيْهِ وَيَدْعُونَ لَهُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَى قَوْلِهِ: مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ. ينظر: صحيح البخاري٦/١١٨، ٨/٦١.

([2]) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢/٨٤.

الترمذي- بسنده- عن ابن مسعود أنه قال: من سره أن ينظر إلى وصية محمد التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ. إلى قوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[١].

وقد ورد (ذلكم) في آخر كل آية منها، هكذا:(ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)،(ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)،(ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأنعام/١٥٣،١٥٢،١٥١).

و يبدو معنى خطاب الجمع في (ذلكم) أيضا في ضم الآيات التي جاءت في سياق واحد، كسياق الحديث عن نعمة الله تعالى على بني إسرائيل من حيث إنجاؤهم من عذاب فرعون، وقد وقع ذلك في الثلاثة المواضع الآتية:

في قوله تعالى:(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة/٤٩).

وقوله تعالى: (وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (الأعراف/١٤١).

وقوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (إبراهيم/٦).

ونلحظ أن الآيات الثلاث اختتمت بوصف البلاء المشار إليه بأنه عظيم.

وجمع الخطاب في قوله: (وَفِي ذَلِكُمْ) ليناسب مقام تعدد النعم على بني إسرائيل، ولبيان عظيم ما حل بهم من البلاء، وأحاط بهم جميعا، وكان يمكن- في غير القرآن- أن يقال: (وفي ذلك)، ولكنه لا يفيد تعلق المشار

---

(١) أخرجه الترمذي [٣٠٧٠]، وقال: حديث حسن غريب، ينظر: سنن الترمذي٥/٢٦٤،تح/ أحمد شاكر.

إليه (وهو تعذيبهم، و تذبيح الأبناء، واستحياء النساء) بهم جميعا، فجمع الخطاب لعظم المشار إليه، وشدة أثره في المخاطبين.

بالإضافة إلى ما يحدثه صوت ميم الجمع من تناسق صوتي بديع، ينسجم وسياقَ الآية الكريمة.

كما يظهر جليا تعلق المشار إليه بالمخاطبين إذا كان الأمر متعلقا بالنفس في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة/٥٤)

لتعظيم أمر التوبة بهذه الهيئة الخاصة لبني إسرائيل، وليشمل الحكم جميع المخاطبين، وفيه أثر المشار إليه في المخاطبين، وارتباطه بهم .

و في بيان أثر كتابة الدين على الجماعة المسلمة في قوله تعالى: (وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا) (البقرة/ ٢٨٢)، وقد وقع الخطاب مجموعا في اسم الإشارة (ذلكم) في هذه الآية الكريمة، والإشارة إلى اكتتاب كتاب الدين إلى أجله، وما ذكره الله–عز وجل– في بيان حال الدين، صغيرا كان أو كبيرا، وحال الكاتب، و المدين من القدرة على الإملاء، أو عدمها، وغير ذلك.

والذي أراه– والله أعلم–أنه لما اشتمل المشار إليه الواحد (ذا) على أمور متعددة، ولكنها مترابطة، وواضحة، صار المشار إليه مؤثرا في المخاطب؛ لبيانه بيانا شافيًا، ولتعظيم أمر الكتابة، وبيان موقعها من العدل، والخطاب للجميع، للدائن والمدين و الكاتب، ومِدادُ العدل في كل ما ذكر هو الإيمان الذي صدرت به الآية الكريمة.

وهي أطول آية في القرآن الكريم، و يبدو أن ثمةَ تناسبًا بين طول الكلام وخطاب الجمع في (ذلكم)، ولكنه غير مطَّرد، لوقوع (ذلكم) في كلام موجز، ووقوع (ذلك) في كلام طويل-أحيانا. فمثال الأول قوله تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (العنكبوت/١٦).

ومثال الآخر قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ **ذَٰلِكَ** بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ **ذَٰلِكَ** بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ) (البقرة/٦١). فقوله: (ذلك) كررت خطابا للنبيﷺ، أو لكل مخاطب بهذا القرآن.

ووقع لفظ (ذلكم) في أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا بالنبي الخاتم ﷺ، وينصروه، ويوصوا أقوامهم بذلك في قول الله تعالى: (وإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)(آل عمران/٨١).

فقوله:( عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ) خطاب للجمع، لتأكيد أخذ الميثاق على جميع النبيين، وتقريرهم جميعا على ما أشير إليه، ومخاطبتهم بهذا، وإن بعدت الأزمان، ولتعظيم هذا الميثاق .

وبيان آثار رحمة الله تعالى، ونعمه المتواترة في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ

وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام/٩٩).

وجمع الخطاب يناسب تعدد الآيات، وتنوعها، فإن فات المخاطبَ نوع منها لم يفته الآخر، كما أن فيه تنبيها إلى أثر النظر في هذه الآيات الكونية المتعددة في نفوس المخاطبين.

و بيان عظم الذنب الذي فعله الكافرون، وشدة تلبس المشركين بشركهم في قوله تعالى: (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ) (فصلت/٢٣)

فجمع الخطاب للإشارة إلى تحقق علم الله بجميع أحوالهم؛ إذ إن مدار الكلام على دحض ظنهم السيئ في أن الله – ﷻ– لا يعلم كثيرا مما يعملون– تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا!

كما أن جمع الخطاب الملحق باسم الإشارة–هنا– يدل على أثر المشار إليه في المخاطبين من أعداء الله؛ حيث إن ظنهم السيئ بربهم قد أهلكهم– والعياذ بالله!

و أثر الاستجابة لأوامر الله ، واجتناب نواهيه في قوله تعالى:( وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَومِ الآخِرِ) ﴿ الطلاق/٢﴾.

والإشارة على ما اختاره صاحب الكشاف إلى الحث على إقامة الشهادة لله تعالى، والأولى كما في الكشف أن يكون إشارة إلى جميع ما مر، من إيقاع الطلاق على وجه السنة وإحصاء العدة والكف عن الإخراج والخروج وإقامة الشهادة للرجعة أو المفارقة[1].

---

([1]) روح المعاني للآلوسي،١٤/٣٣٠، تح/علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت،ط:١، ١٤١٥ هـ

و جمع الخطاب اللاحق باسم الإشارة لمناسبة كثرة المخاطبين، وتنوعهم من حيث أعمالُهم ووظائفُهم، وأثر اتباع أوامر المشرِّع، واجتناب نواهيه، على المجتمع كلِّه، لذلك ناسبه خطاب الجمع، وسوف نفصل الحديث حول هذه الآية الكريمة بعدُ إن شاء الله تعالى.

وفي بيان أثر تحقق المشار إليه في المخاطبين كما لقّن الله نبيه  في قوله تعالى:( سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا **كَذَلِكُمْ** قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ) (الفتح/١٥)

والمشار إليه هو ذلك الحوار الحاصل من قول المخلفين ورد النبي عليهم بالمنع من الخروج.

فإن الله تعالى قد لقَّن نبيه محمداﷺ بما سيقوله المخلفون بعد رجوعه و أصحابه من الحديبية، وعزمهم على فتح خيبر، حيث إن هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج إلى الحديبية، وأساءوا الظن بالله تعالى وبرسولهﷺ سيقولون: ذرونا نتبعكم، وقد كتب الله ألا يخرج إلى خيبر إلا من خرج مع النبي ﷺ في الحديبية، ويمنع من تخلف، فهؤلاء منهيون عن اتباعكم إلى خيبر.

وذكر الكرماني أن قَوْله {كذلكم قَالَ الله} بِلَفْظ الْجمع وَلَيْسَ لَهُ نَظِير، وَهُوَ خطاب للمضمرين فِي قَوْله {لن تتبعونا}[1]، وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها

(1) البرهان في متشابه القرآن للكرماني٢٢٨، تح/عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.

أحد...وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه-ﷺ- أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة.

و لفظ (كذلكم) فريد في القرآن الكريم، فلم يتكرر؛ لأن مثل هذا الحدث لم يتكرر كذلك، والكاف الداخلة على اسم الإشارة تفيد تقوية الحكم وتقريره، أي: أن ما قاله المخلفون وما ردَّ به النبيﷺ عليهم، هو ما لقَّنه الله عز وجل لنبيه ﷺ قبل أن يحدث، فمعنى تأكيد الصورة على الوجه الحاصل أقرب من معنى التشبيه، وإحاطة المشار إليه بكاف التشبيه في أوله، وميم الجمع في آخره لَكَافٍ في الإشارة إلى حَضْرِهِ من بين يديه ومن خلفه.

وخطاب الجمع الملحق باسم الإشارة يدل على أثر المشار إليه في نفوس المخاطبين.

**وأما (تلكم)** ففي قوله تعالى: (وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأعراف/٤٣)، فإنه يوافق السباق واللحاق، فإن النداء موجه إلى أهل الجنة جميعا، وواو الجماعة نائب فاعل، وبعده قوله:( أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) خطاب للجمع، وسياق الكلام عن أصحاب الجنة، و إكرام الله لهم، وسيأتي مزيد بيان لوجه جمع الخطاب هنا وإفراده في غيرها.

ومن خلال ما سبق يظهر أثر المشار إليه في المخاطب، و قد وقع مطابقة جمع الخطاب اللاحق باسم الإشارة في مقام تعدد النعم، كما في خطاب بني إسرائيل، ومقام الحقوق واستيفائها، كما في كتابة الدين، وللتنبيه إلى أمر عظيم، كما في توجيه الناس إلى العمل للآخرة، وعدم الاغترار بالدنيا، ولتأكيد المشار إليه وتقريره، كما في أخذ الميثاق على النبيين، وللإشارة إلى تلبس المخاطب بالمشار إليه، كما في خطاب أهل الجنة في الجنة.

**و أما (أولئكم)** فقد ورد في موضعين:

أولهما في قوله تعالى:( سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ **وَأُولَٰئِكُمْ** جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا) (النساء/٩١).

أي: وهؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، وهم على ما هم عليه من الكفران، ولم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم، جعلنا لكم حجة في قتلهم أينما لقيتموهم، بمقامهم على كفرهم، وتركهم هجرة دار الشرك[١].

وقع الخطاب مجموعا في (أولئكم)، لبيان أثر المشار إليه في المخاطبين؛ فإنه لما كان المشار إليه فئةً من المنافقين الكافرين المستمرين في موالاة الكفر ومعاداة الإسلام، وكان ذكرُهم بهذه الصفات المحددة، والقيود المعينة مؤثرا في نفوس المخاطبين من المؤمنين الذين لا يُقْدِمون على قتالٍ إلا بحجة وبينة- أمر الله المخاطبين بقتالهم حيثما وجدوهم؛ إذ إنه ثبت لديهم عداوتهم للمسلمين، ومحاربتهم، وخطاب الجمع هنا متناسب مع اسم الإشارة، كما أن لحاق حرف الخطاب بالمشار إليهم لَيدل على إحكام القبضة عليهم، والسيطرة على كيدهم، وإحباط مكرهم.

والآخر في قوله تعالى:( أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ **أُولَٰئِكُمْ** أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) (القمر/٤٣).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٩/٨.

والمعنى: أكفاركم- معشر قريش- خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون[1] ؟!

فالخطاب لكفار قريش، واتفاق اسم الإشارة والمخاطب في الجمع، إشارة إلى قوة الشبه بين الأقدمين والمخاطبين في الكفر والعناد والتكذيب، واستئناسهم بجمعهم، واغترارهم بقوتهم، ويوشك أن يحل بهم من العذاب ما حل بالسابقين.

وخطاب الجماعة هنا في آية قصيرة دليل على أن حرف الخطاب (كم) لا علاقة له بطول الكلام، كما أن حذفها لا علاقة له بقصر الكلام.

ولكنه لما كان أمر إهلاك المكذبين السابقين معلوما لدى المخاطبين من كفار مكة، صار المشار إليه ذا أثر شديد في نفوسهم من حيث زيادةُ التهديد والوعيد.

ونلحظ أن سياق الآيتين الكريمتين في الحديث عن فئة من الكافرين المغرورين بقوتهم أو بجمعهم، ولا يمنع أن تكون أولاهما في فريق من المنافقين الموالين للكفار، فهم في الكفر سواء.

كما أن فيهما وعيدا وتهديدا شديدا للمشار إليهم بالعذاب في الدنيا على أيدي المؤمنين، كما في آية سورة النساء المدنية، أي بعد فرض الجهاد، وفي الآخرة كما في آية سورة القمر المكية قبل فرض الجهاد والدفاع القتالي.

وصوت ميم الجمع في الخطاب يوحي بشدة إحكام السيطرة عليهم، فلا مفر، ولات حين مناص.

---

([1]) المرجع السابق ٢٢/٦٠١.

**رابعا- خطاب جمع المؤنث:**

في قوله تعالى:( قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِۖ) (يوسف/٣٢)، إشارة إلى شغف النسوة بجمال يوسف- عليه السلام- وعليه فاسم الإشارة (ذلك) بمعنى (هذا) كما ذكر الطبري[١].

وفي ضم حرف الخطاب إلى اسم الإشارة دلالة على أثر المشار إليه في المخاطب.

وفرق بين قولهن قبل ذلك بصيغة المذكر، أعني في قوله:( وَقَالَ نِسْوَةٌ)، وبين مخاطبتهن بنون النسوة في قولها لهن :( فَذَٰلِكُنَّ)، فتذكير فعل القول قبل رؤية يوسف، وإلحاق حرف الخطاب المؤنث بعد رؤية المشار إليه، فليس الخبر كالمعاينة، وما راءٍ كَمَن سَمِعا.

أو أن الإشارة في (ذلكنَّ) إلى حبها له وما قالته النسوة عنها :( قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)، فيكون البعد حقيقيا، وخطاب جمع النسوة بنون النسوة على الأصل، ولكنه يشير إلى إرادة امرأة العزيز توثيق ذلك وتأكيده، لتبرهن لهن على عذرها في مراودتها له، و فيه لطيفة أخرى، وهي إظهار ضعفهن أمام هذا الجمال اليوسفي، و تجلية النوع الأنثوي، والله أعلم .

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٨٥/١٦.

## المبحث الثالث

## موقف العلماء من إفراد كاف الخطاب في اسم الإشارة إذا خوطب به الجمع:

اختلفت وجهات النظر في كاف الخطاب اللاحقة أسماءَ الإشارة إلى عدة أقوال:

**القول الأول:** وهو الأشهر، ذكره الطبري والفراء والراغب والرازي، وغيرهم أن القرآن نزل باللغتين جميعاً[1]، يعنى إفراد الخطاب في جميع الأحوال، أو مطابقته المخاطب.

وأوضح الراغب أن كاف الخطاب مع (ذا) تارة تفيد الخطاب، فيراعَى فيه المخاطبون فيثني، ويجمع، ويؤنث بحسبهم، وتارة يعتبر به الفرق بين القريب والبعيد، فيقال: (ذا) لما يتصور قريبا، و (ذاك) لما يتصور بعيدا، فلا يثنى ولا يجمع، فعلى هذا؟ (ذلك)، و (ذلكم)[2].

فكاف الخطاب–لكثرة جريانها على ألسن العرب– صارت كأنها حرف من حروف الكلمة، متصلة بها، ك(هذا)، وكأنها ليس معها مخاطب[3].

---

(1) ينظر: تفسير الطبري٥/٢٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٤٩/١، تح/أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط/١، وتفسير الرازي٦/٤٥٤، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط/٣،– ١٤٢٠ هـ ، والتحرير والتنوير ٤٢٨/٢.

(2) تفسير الراغب ٤٧٩/١، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب – جامعة طنطا، ط/١: ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.

(3) ينظر: تفسير الطبري ٢٧/٥.باختصار.

وكاف الخطاب إذا اتصل بالمبهمات يصير كوصلة لها وجزء منها، فتارة يعتبر فيه الأصل فيجمع، وتارة يعتبر فيه كونه وصلة، لا خطاباً فيترك على حالته، لا يثنى ولا يجمع(١).

وبيانه: أن{ذلك} أكثر أسماء الإشارة استعمالًا بالإفراد؛ إذ خطاب المفرد أكثر، غُلِّب فاستعمل لخطاب الجمع؛ تنبيهًا على أن الكاف قد خرجت عن قصد الخطاب إلى معنى البعد، ومثل هذا في كلام العرب كثير؛ لأن التثنية والجمع شيئان خلاف الأصل، لا يصار إليهما إلا عند تعيين معناهما، فإذا لم يقصد تعيين معناهما فالمصير إليهما اختيار محض(٢).

فإفراد (الكاف) مع اسم الإشارة، مع أن المخاطب جماعة، رعياً لتناسي أصل وضعها من الخطاب إلى ما استعملت فيه من معنى بُعْدِ المشار إليه فقط، فإفرادها في أسماء الإشارة هو الأصل، وأما جمعها في قوله: {ذلكم أزكى لكم} (البقرة:٢٣٢)، فتجديد لأصل وضعها(٣).

ويبدو أن إفراد كاف الخطاب وجمعه قد لفت نظر الطاهر بن عاشور، فأراح واستراح إلى أنهما لغتان، ولم ينشغل-على غير العادة- بالسر وراء لزوم الإفراد في موضع، والمطابقة في موضع آخر فقال ابن عاشور:

---

(١) تفسير الراغب ١/١٩١.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١/٥٠١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٢/٤٢٨.

وَلَا يَرِيبُكَ إِفْرَادُ كَافِ الْخِطَابِ فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَافِ مَعَ اسْمِ الْإِشَارَةِ الْإِفْرَادُ وَالتَّذْكِيرُ، وَإِجْرَاؤُهَا عَلَى حَسَبِ حَالِ الْمُخَاطَبِ بِالْإِشَارَةِ جَائِزٌ وَلَيْسَ بِالْمُتَعَيِّنِ[1].

والخلاصة: أنَّ إفرادَ اسمِ الإشارة جائز في اللغة، والتثنية أيضاً جائزة، والقرآن نزل باللغتين جميعاً، قال تعالى: {ذلكما مما علمني ربي} (يوسف:٣٧)، وقال: {قالت فذلكن الذي لمتنني فيه} (يوسف:٣٢)، وقال: {ألم أنهكما عن تلكما الشجرة} (الأعراف:٢٢)[2].

ونحن لا ننكر جواز اللغتين، ولكن الذي يأباه العقل والمنطق أن نسلم بأن تحل إحدى اللغتين محل الأخرى في سياق القرآن الكريم بدعوى أنهما جائزتان.

فلا بد من بيان المقامات التي تكون مع الإفراد، والمقامات التي تكون مع مطابقة المخاطب؛ فإن بيان ذلك واجب؛ لأن القرآن الكريم معجز في ألفاظه ومعانيه.

**القول الثاني**: وقد حكاه الطبري(ت٣١٠هـ) أيضا، والإسكافي(ت٤٢٠هـ)، والسيوطي(ت٩١١هـ) أن الخطاب للنبي- صلى الله عليه وسلم- لأنه المخاطَبُ الأولُ بهذا القرآن، وهو الذي كُلف بتبليغه للناس[3].

---

([1]) المرجع السابق٩/٢٨٤.

([2]) ينظر: تفسير الرازي٦/٤٧٥.

([3]) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي،١/٣٠١،٣٠٠، بتصرف تح/عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر للسيوطي.

و ذكر الإسكافي أن كل موضع أُفردت فيه (الكاف) والخطاب لجماعة، فإنما قُصد بـ (الكاف) المفردة مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم،... كقوله تعالى: {ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن} تكون (الكاف) في {ذلك} لخطاب النبي، و(الكاف) في {منكم} خطاب لأمته، وكذلك كل موضع جاءت (الكاف) فيه هذا المجيء[١].

وإذا وجه التأويل إلى هذا الوجه، لم يكن فيه مؤونة، كما ذكر الطبري[٢].

وأرى أن توجيه خطاب الجماعة بالإفراد على أنه للنبي ﷺ صالح لبعض المواضع دون بعضٍ، كما سيتضح بعد.

**والقول الثالث والرابع** وقد حكاهما السيوطي عن ابن الباذش (ت٥٢٨هـ)[٣]

أحدهما: أَن يُقبِل بِالْخِطَابِ على وَاحِدٍ من الْجَمَاعَة، لجلالته وَالْمرَاد لَهُ وَلَهُم.

وهو قريب من السابق، إلا أن المخاطب قد يختلف شخصه، حسب السياق.

والآخر: أَن يُخَاطب الْكل، وَيُقَدَّر اسْمٌ مُفْرَدٌ من أَسمَاء الجموع، يَقع على الْجَمَاعَة، تَقْدِيره: ذَلِك يَا فريق، وَيَا جمع، وَنَحْو ذَلِك.

وذكر ابن الأنباري أن من العرب من يأتي بالكاف مفردة في التثنية والجمع على خطاب الواحد إذا فهم المعنى؛ قال الله سبحانه وتعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي ٣٤٥/١، . دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ط/١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

(٢) ينظر: تفسير الطبري٢٩/٥.

(٣) ينظر: همع الهوامع ٣٠٠/١، بتصرف.

أَيْدِيكُمْ} ولم يقل "ذلكم"؛ وقيل: إنَّما أفرد؛ لأنَّه أراد به الجمع؛ (كأنه قال: ذلك أيها الجمع)، والجمع لفظه مفرد[1]. ولا يخلو من تكلف.

وَإِذا زَاد بُعدُ الْمشَار إِلَيْهِ أَتَوا بِاللَّامِ مَعَ الْكَاف، واستُفيد باجتماعهما زِيَادَة فِي التباعد؛ لِأَن قُوَّة اللَّفْظ مشعرة بِقُوَّة الْمَعْنى، وَلَا يلْزم أَن يكون ذَلِك فِي الْكَلَام للبعد الْحَاصِل بِسَبَب طول الْكَلَام، بل يجوز أَن يكون للبعد الْمَعْنَوِيّ أَيْضا، وَالدّلَالَة على الْبعد فِي (ذَلِك) بِحَسب الْعرف الطارئ، لَا فِي أصل وضع ذَلِك، وَقد يسْتَعْمل (ذَلِك) فِي مَوضِع (ذَلِكُم) كَقَوْلِه تَعَالَى: {ذَلِك لمن خشِي الْعَنَت مِنْكُم}، وقوله: {ذَلِك أدنى أَلا تعولُوا}. [2].

**الرأي الخامس: لابن الزبير الغرناطي(ت ٧٠٨هـ)**؛ حيث إنه احتكم إلى السياق في توجيه إفراد الخطاب أو جمعه، و قد صنع ذلك في موضع التفرقة بين آيتي سورة البقرة والطلاق، وسيأتي بيانه في حينه إن شاء الله.

**الرأي الراجح:**

لا شك أن الاحتكام إلى السياق في بيان توجيه إفراد الخطاب وجمعه أولى من غيره من الأقوال؛ فالأصل في كاف الخطاب أن توافق نوعَ المخاطب (من حيث التذكير والتأنيث)، وعددَه (من حيث الإفراد والتثنية والجمع)، ولا يعدل عن ذلك إلا لغرض من أغراض السياق، أو للتنبيه على أمر متعلق بمعنى الإفراد، ولا يوقف عليه إلا باستعراض الآيات، وموازنة السياقات، وتدبر معانيها، ومراميها، من دون تكلف .

---

(1) أسرار العربية لابن الأنباري ٢٧٤/١، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط: الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م

(2) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، للكفوي ٤٦٠/١. تح/ عدنان درويش، مؤسسة الرسالة.

و ألحظ اتفاق كثير من العلماء على إن إفراد الخطاب في اسم الإشارة أو مطابقته للمخاطب لغتان جائزتان، بيد أن كلامهم كان مقصورا على الكاف المتصلة في لفظي:( ذلك) و(ذلكم) ولم يتعرضوا لغيرهما!

فيا هل ترى أوَقَع ذانِك اللفظان في القرآن على وفق اللغتين المذكورتين؟، وهل يدخل في هاتين اللغتين إفرادُ الخطاب أو مطابقته في غيرهما من أسماء الإشارة، نحو: (تلك وتلكما وتلكم، وأولئك و أولئكم)؟

أرى أن تقتصر اللغة على المنصوص عليه، ولا يقاس عليه غيره، فالاحتجاج بالوارد في اللغات وليس بالقياس.

وإذا أمعنا النظر في لغة القرآن تبين لنا عدم وقوع (ذلكَ) بفتح الكاف في مخاطبة الأنثى، ولكنه لمَّا خاطبها كسرت الكاف، هكذا: (كذلكِ)، وهذا مخالف للغة لزوم (ذلكَ) الإفراد والتذكير.

كما أن (ذلكَ) بفتح الكاف– لم تقع، في مخاطبة المُثَنَّى، إلا في موضعٍ واحدٍ، يمكن تأويله، وهو في قوله تعالى–على لسان يوسف–عليه السلام–: (ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (يوسف/٣٨).

فالكلام وإن كان موجهًا إلى صاحبَيْهِ في السجن، إلا أن هذه الآية وجزءا مما قبلها تقص حالا ماضية، فهو خبر، و ليس خطابا لهما، وإنما الحديث عن الغائب (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ) ثم قال مخبرا عن هذه الحال الماضية، التي امتن الله بها عليه: (ذلك)، فاستغرق المشار إليه جميع اللفظ، حتى الكاف، ف(ذلك) هنا مثل (هذا)، فلم

يُرِدْ بها إلا التنبيهَ، وكونَها وصلة للام البعد؛ للإشارة إلى بعد منزلته، وعظيم قدره.

ولو أراد الخطاب لقال: (ذلكما من فضل الله) كما ذكر قبلها مباشرة في خطابهما بقوله:(ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)، وقد سبق توجيه الخطاب للمثنى فيها.

فليس معنى وقوع (ذلكَ) في معرض خطاب الجمع أحيانا أنها على لغة من يلزمها الإفراد والتذكير في جميع الحالات؛ وذلك لأمرين:

أولهما: عدم اطِّرادها في جميع الحالات الأخرى من مخاطبة المؤنث والمثنى.

والآخر: إمكان تأويل الخطاب على الإفراد، إما حقيقة، وإما مجازًا.

وإني لأرجئ الأدلة والبراهين على ذلك إلى نهاية البحث، حيثُ فتحُ الرتائج، وطرْحُ النتائج.

وإني-إذْ أُبْدِي رأيِي هنا- فلأنه الدافع الأقوى لهذه الدراسة، و لإيماني بإعجاز القرآن في لفظه ومعناه، فما من حرف إلا وله دلالة، وإن خفي كريمُ معناه، أو غاب عنا لطيفُ مغزاه.

وهذا ما أحاول الوقوف عليه في المبحث التالي، من خلال تدبر الآيات الكريمة، وتجلية سياقاتها المتنوعة، وبالله التوفيق!

## المبحث الرابع

## إفراد الخطاب في اسم الإشارة عند مخاطبة الجماعة ودلالاته

ورد (ذلك) في القرآن تسعينَ وثلاثَمائةِ مرةً، وقد وقع منها ست وأربعون وثلاثمائة خطابا للمفرد المذكر، على الأصل، أي بنسبة ٨٩% تقريبا، في حين عدل الخطاب عن الجمع إلى المفرد، في أربعة وأربعين موضعا، بنسبة١١% تقريبا، أي أن المخاطب جماعة، ولكن اسم الإشارة يلحقه كاف الخطاب للمفرد (ذلك)، و يمكن توجيهه بأحد توجيهين رئيسين:

التوجيه الأول: الاهتمام بالمشار إليه؛ لأنه يحمل في طياته المعنى العجيب أو المهم الذي ينبغي أن يلتفت إليه المخاطب .

وهذا على لغة من يستعمل اسم الإشارة (ذلك) مثل(هذا)، على الأصل، وكأنه لفظة واحدة .

والتوجيه الآخر: العدول عن الجمع إلى الإفراد، وفي هذه الحالة تكون الكاف لخطاب المفرد، و يحدد السياق الغرض من هذا الإفراد.

وعلى كلٍ فإن السياق يسلط الضوء على بعد المشار إليه، و أثره في المخاطب، و إليك الشواهد على ما ذكرت بالتفصيل:

**أولا- تذكير بني إسرائيل بالنعم و كفرهم بالمنعم :**

نعمة العفو بعد الذنب: في قوله تعالى:( ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(البقرة/٥٢)

وهذه الآية الكريمة من جملة الآيات التي فيها تعداد نعم الله تعالى على بني إسرائيل، وكان واجبا عليهم أن يشكروها، ف{ذلك} إشارة إلى اتخاذهم العجل

إلهًا[1]، وإيثار اسم الإشارة؛ ليكون الذنب مشاهدا أمامهم؛ فيكون أدعى للشكر، وبُعد الإشارة لعظم الذنب، وفي إفراد الخطاب المتصل باسم الإشارة هنا دلالاتٌ خاصةٌ على النحو الآتي:

١- دلالة اسم الإشارة على عظيم جرمهم قبل العفو عنهم، فاستغرق هذا المعنى لفظ (ذلك) فلم يعبأ السياق بالمخاطبين.

٢- إشعار بما أصابهم من العقوبة، وخطاب لبقية المعفو عنهم؛ لينتهي الأمر فيهم إلى غاية يترجّى معها لبقيتهم الشكر - قاله الحرالي(ت٦٣٨هـ)[2].

قلت: وهذا كلام دقيق، يحتاج إلى بيان، وبيانه أنَّ هناك فترةً بين الذنب العظيم الذي اقترفوه، و العفوِ، وهذه المهلة أشعرتهم بالعقوبة، فتضاءلوا من خيفتها، و انكمشوا من شدة الخوف والهلع، انتظارا منهم لوقوع العذاب بهم، ثم جاءهم العفو بعد هذه المهلة، وهُم على هذه الحالة كأنهم أفراخ خائفة متضاغطة، ولذا حسن خطابهم بالإفراد، و يصدق فيهم قول الشاعر:

كأنَّ فجاجَ الأرضِ وهْيَ عريضةٌ***على الخائفِ المطلوبِ كِفَّةُ حابلِ[3]

---

(١) ينظر: تفسير الطبري٢/٥٩.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي١/٣٦٧، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٣) البيت من الطويل ، وقائله: القتَّال، وهو في ديوانه ص٩٩، ويروى لعبد الله بن الحجاج، ، وكفة الحابل، يعني صاحب الحبالة التي ينصبها للصيد، ينظر: الكامل للمبرد٣/٩٨.

٣- كما أن إفراد الخطاب إشارة إلى قلة الشاكرين، كما قال تعالى:( إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (غافر/٦١)، وقوله تعالى:( اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (ص/١٣).

٤- ويجوز أن يكون أفرد حرف الخطاب إشارة إلى أنه لا يعلم جميع ما في دينهم من الشناعة إلا إمامُ أهل التوحيد النبي صلى الله عليه وسلم. [١]. أي: أن (ذلك) خطاب للنبي-ﷺ، و يكون فيه تسلية له عما يلاقيه من اليهود المعاصرين له- ﷺ ، ولكن خطابهم بصيغة الجمع قُبيلَه وبُعيدَه في قوله:( عَنْكُمْ)، وقوله:(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) يجعله متكلَّفًا، وقد يخلو من التكلف إذا طال الكلام، كما في ختام قصة نوح-عليه السلام، في قوله تعالى:( تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ) (هود/٤٩).

٥- كما أن في العدول عن مخاطبة الجمع إلى المفرد في اسم الإشارة إيذانا بالعفو السابق، وأمارةً من أماراته؛ إذ إن اتخاذهم العجل إلها- ذنب قبيح، وجريمة نكراء، وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه عفا عنهم، ومن كرمه أنه خاطبهم جميعا عند ذكر العفو، و رجاء الشكر، و لكنه اكتفى بالإشارة إلى جُرمهم، ولم يخاطبهم بصيغة الجمع- حينئذٍ-، كرما وإحسانا، وسترا، ولا سيما بعد العفو.

و لما كانت الإشارة إلى أمر قبيح شنيع، تنكره الفطرة السليمة، استحسن خطاب المفرد لا الجمع؛ إذ إنه لا يتصور فعله من واحد، فضلا عن جمع.

---

([١]) ينظر: نظم الدرر ١/٣٦٧.

٦- و في مخاطبة الجمع بالمفرد إشارة لطيفة إلى قِصَرِ نظرهم، وعظم غبائهم، وهل ثمة أغبى ممن اتخذ العجل إلها؟!

ونعمة الإمهال والتوبة بعد نقض الميثاق في قوله تعالى (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(البقرة/٦٤)

" ذلك " كناية عن جميع ما قبله في الآية المتقدمة، أعني قوله: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ [١]، والمعنى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه[٢].

فالإشارة إلى الميثاق، وأفرد الخطاب، لتركيز السياق على المشار إليه، واستغراقه اللفظ كله؛ لكثرة استعماله مفردا، و لأمن اللبس، والاكتفاء باكتناف خطابهم من بين يديه ومن خلفه.

ولعل توليتهم عن الميثاق ونقضه أسهم في العدول عن مخاطبتهم بالجمع (ذلكم) إلى مخاطبتهم بالإفراد(ذلك)، وكأنهم تخلوا عن الميثاق، ولم يجتمعوا عليه.

وفي بيان سؤال بني إسرائيل عن البقرة في قوله:( قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ) (البقرة/٦٨).

ففي قوله(ذلك) إشارة إلى بُعد السن بين البقرة الهرمة و الصغيرة، وخطاب لجماعة من بني إسرائيل، وكان القياس (ذلكم)، ولكنه عدل عن خطاب جماعتهم لما يأتي:

---

(١) ينظر: تفسير الطبري٢/١٦٢.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٢٨٨.

-لأن الإشارة إلى السِّن هو المطلوب، ولا لبس في المخاطب، فالكاف وُصلة لاسم الإشارة؛ لتدل على بعد المشار إليه مع اللام، على رأي من يرى ذلك.

-لأنه يبلغ عن الله عز وجل، أي: هذا ما أوحى الله إليَّ به؛ ويدل عليه قوله:( قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ).

-للإعراض عن خطاب هذه الجماعة المجادِلة لنبي الله موسى-عليه السلام؛ أفلم تر أنه خاطبهم في مطلع الكلام في قوله:(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ)، فلما جادلوا نبيهم، و قالوا: (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ) فأضافوا الربَّ إليه وحده، ولم يقولوا: (ربَّنا) لم يخاطبهم، بل خاطب نبيَّهم ليبلغهم.

و الإنعام على بني إسرائيل برؤية عجيبة إحياء الله الميت، في قوله تعالى: (فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ﴿ البقرة/٧٣﴾.

والتكلم من الله تعالى مع من حضر وقت الحياة- والكاف- خطاب لكل من يصح أن يخاطب، ويسمع هذا الكلام؛ لأن أمر الإحياء عظيم، يقتضي الاعتناء بشأنه أن يخاطب به كل من يصح منه الاستماع، فيدخل فيه أولئك دخولا أوليا- ويدل على ذلك قوله تعالى: وَيُرِيكُمْ.. إلخ، ولا بد على هذا من تقدير القول، أي: قلنا أو وقلنا لهم: كذلك ليرتبط الكلام بما قبله، وقيل: حرف الخطاب مصروف إليهم، وكان الظاهر: (كذلكم) على وفق ما بعده، إلا أنه أفرده بإرادة كل واحد، أو بتأويل فريق ونحوه قصدا للتخفيف، ويحتمل أن يكون التكلم مع من حضر نزول الآية، وعليه لا تقدير؛ إذ ينتظم بدونه،

بل ربما يخرج معه من الانتظام، وأبعد الماوردي فجعله خطابا من موسى نفسه عليه السلام وَيُرِيكُمْ آياتِهِ مستأنف أو معطوف على ما قبله[1].

وقسوة قلوب بني إسرائيل بعد رؤية كثير من الآيات في قوله تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) ﴿البقرة/٧٤﴾.

وتوحيد الخطاب بعد اسم الإشارة لبيان اجتماع قلوبهم على القسوة، وكأنما صارت حجرًا كبيرًا واحدًا، لا ترى فيه من فروجٍ ولا شقوقٍ.

كما أن إفراد الخطاب لهم للدلالة على أن المشار إليه وهو ما جاءهم من الآيات البينات قد استغرق المعنى، وصار مهيمنا على جمعهم، ولكنهم لم ينتفعوا به؛ فمن ثَمَّ عدل عنهم.

**ثانيا- تذكير الخلق جميعا بنعم الخالق ﷻ:**

نعمة السرابيل في الحر والبأس في قوله تعالى: (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) ﴿النحل/٨١﴾.

أفرد الخطاب في (كذلك) مع أن المخاطبين جمع؛ لبيان الفرق بين النعم السابقة المتعددة و تمام النعمة، وهو الانقياد وإسلام الوجه لله تعالى، أي مثل ذلك الإتمام المتعلق بالنعم الظاهرة البدنية والجسدية إتمام نعمته على قلوبكم و أرواحكم، فالنعم الأولى يناسبها التعدد والجمع لكثرة حوائج الجسد وتنوعها، وجدير بمن عرف المنعم بعد ذوق نِعمِه أن يجتمع قلبه على محبته والانقياد له، فهذا ما ينبغي أن يكون للمخاطبين جميعا، أن تتحد غاياتهم في السكون إلى المنعم ﷻ.

---

([1]) روح المعاني ١/٢٩٤.

ونعمة تسخير الأنعام كما في قوله تعالى: (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ﴿ الحج/٣٦﴾.

أفرد الخطاب للإشارة إلى أن ما سبق من هذا التسخير خليق بجمعكم على طريق الهُدى، ومحرض قوي على الشكر، فكأن إفراد الخطاب منبئ عن وصولهم جميعا إلى غايتهم المأمولة، وهدفهم الواحد، واجتماع قلوبهم على التوحيد الخالص لله تعالى.

وقوله تعالى: (وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) ﴿الحج/٣٧﴾

وإفراد الخطاب هنا مشعر بعلة التسخير، وهو اتحاد الغاية والهدف، وهو النظر إلى عظم مَن تتقرب إليه، و صغر ما تتقرب به مهما يكن.

**ثالثا- الحض على وحدة الصف:**

في قوله تعالى: (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) ﴿آل عمران/١٠٣﴾.

وإفراد الخطاب مناسب لتأليف القلوب، واجتماعها على طريق الهداية الواحد، لا سيما وقد أمرهم في مطلع الآية بقوله: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) فأمرهم بالاعتصام بحبل الله، ونهاهم عن التفرق، وأمرهم بتذكر نعمت الله (كذا بالإفراد والتاء المبسوطة)؛ لأنها معلومة لديهم وواضحة للعيان.

وقال الله تعالى: (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) ﴿ آل عمران/ ١٨٦﴾

قال الآلوسي: وتوحيد حرف الخطاب إما باعتبار كل واحد من المخاطبين اعتناء بشأن المخاطب به، وإما لأن المراد بالخطاب مجرد التنبيه من غير خصوصية أحوال المخاطبين[1].

وأرى أن في خطابهم بالإفراد بعد حضهم على الصبر والتقوى إشارةً إلى أن هذين الأمرين (الصبر والتقوى) كفيلان بوحدتهم، وجعلِهم صفًا واحدًا، تُجاهَ أعدائهم.

وكذا في قول الله تعالى: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النساء/٥٩).

أفرد الخطاب في (ذلك) ليدل على الوحدة التي يثمرها الرجوعُ إلى كتاب الله و سنة رسوله .

**رابعا- إفراد الخطاب في سياق التشريع:**

في بيان تخفيف القصاص إلى العفو أو الدية في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَىٰ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ) (البقرة/١٧٨).

فخطاب المفرد في (ذلك) بعد خطاب المؤمنين في مطلع الآية، ثم جمعه بعده في قوله:(من ربكم) لمناسبة التخفيف المذكور، فالمشار إليه وهو العفو عن القاتل أو الدية فيه تخفيف فعبر عنه بلفظ مخفف، و لبيان خصوصية

---

([1]) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي، ٣٥٨/٢، تح/علي عبد الباري عطية
دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥ هـ.

الحكم؛ إذ إن القصاص هو الأصل، ولكن الشرع أباح لولي الدم العفو أو الدية، فلا يعمم.

و إنفاق العفو في قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) ﴿البقرة/٢١٩﴾، وذكر الآلوسي أن المشار إليه ما يفهم من قوله سبحانه: (قُلِ الْعَفْوَ)، وإيراد صيغة البعيد مع قربه لكونه معنى متقدمَ الذكر، ويجوز أن يكون المشار إليه جميع ما ذكر، من قوله سبحانه: (يَسْئَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ)؛ إذ لا مخصص، مع كون التعميم أفيد، والقرب إنما يرجح القريب على ما سواه فقط،...أي: يبين لكم الآيات المشتملة على الأحكام تبيينا مثل هذا التبيين،...وكان مقتضى الظاهر أن يقال- كذلكم- على طبق لَكُمُ، لكنه وحد بتأويل نحو القبيلة، أو الجمع ما هو مفرد اللفظ جمع المعنى روما للتخفيف، لكثرة لحوق علامة الخطاب باسم الإشارة، وقيل: إن الإفراد للإيذان بأن المراد به كل من يتلقى الكلام [١].

وأرى أن توجيه إفراد الخطاب في لفظ (كذلك) بالتخفيف أولى، وأبعد عن التكلف؛ وذلك لأن لفظ (كذلكم) بميم الجمع لم يرد إلا مرة واحدة، وقد سبق التعليق عليها.

ويكون الخطاب لكل من يخاطب بهذا القرآن، وليس لمن حضر وقت السؤال المطروح فحسب.

وأحكام الطلاق والخلع في قوله تعالى: (حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا) ﴿البقرة/٢٢٩﴾.

---

(١) ينظر: روح المعاني ١/٥١٠، باختصار.

وكذا قوله:(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا )( الطلاق/٥)

قد يكون خطابا للنبيﷺ، {ذلك} إشارة إلى ما ذكر من الأحكام،... وإفرادُ الكافِ معَ أن الخطابَ للجمعِ كما يفصح عنه قولُه تعالى {أَمْرُ الله أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ} لِما أنها لمجردِ الفَرْق بين الحاضرِ والمنقضي، لا لتعين خصوصية المخاطبين[١].

والمقصود أن إفراد الخطاب في (ذلك) للحاضر، لينتبه كل مخاطب، وليعلم أنه المقصود بهذا الخطاب، وهو ما عبر عنه الغزالي في الإحياء بأدب التخصيص، وهو أن يُقَدِّرَ أنه المقصود بكل خطاب في القرآن[٢].

وتشريع كفارة الظهار في قوله تعالى:(فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ﴿المجادلة/٤﴾

إفراد الخطاب لكل مخاطب، أو مراعاة للفظ (مَن) في قوله:( فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا).

في تشريع الزواج بامرأة واحدة أو التسري في قول الله تعالى: (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿النساء/٣﴾.

(ذلِكَ) أي: اختيار الواحدة أو التسري أو الجميع- وهو الأولى[٣].

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٦٢/٨.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي،٢٨٥/١ ، دار المعرفة – بيروت.

(٣) ينظر: روح المعاني٤٠٧/٢.

ومخاطبة المفرد هنا يشير إلى اختِلاف حال كل فرد وقُدرته الجسميَّة والماليَّة واستعداده لتحمُّل مسؤوليَّته، وما يترتب على ذلك من أحكام.

وفي كفارة اليمين المنعقدة في قول الله تعالى: (ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ) ﴿المائدة/٨٩﴾

لما كانت الكفارة المذكورة في الآيات للفرد الواحد خوطب المفرد في (ذلك)، و (كذلك).

وفي جَعْلِ اللهِ الكعبةَ البيتَ الحرام قيامًا للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد في قول الله تعالى: (ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ)(المائدة/٩٧).

ذلِكَ إشارة إلى جعل الكعبة قياماً للناس، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره[١]، وأفرد الخطاب للنبي ﷺ – لأنه المأمور بالتبليغ، ويرجحه أن محلَّه النصبُ بفعل مقدر يدل عليه السياق وهو العامل في اللام بعده أي شرَعَ ذلك.

وفي تشريع الاستئذان داخل البيوت في قوله تعالى: (طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ) ﴿النور/٥٨﴾

أفرد الخطاب للإشارة إلى توحيد المقصد، ووضوح المنهج، فما جعل الاستئذان إلا من أجل النظر، و من دقق النظر في الحكمة من هذه الآداب السامية، عرف أن الشارع الحكيم قد حافظ على حرماتك عندما نهاك عن التعرض لحرمات غيرك، فكأن المجتمع المسلم صار فردا واحدا.

(١) الكشاف ٦٨٢/١.

و قولـه تعـالى:(فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِۗ)﴿النور/٥٩﴾، فالخطاب لكل مخاطب بهذه الآيات؛ ليعلم كل منهم أن الناقد بصير؛ فليحذر من المخالفة.

وقولـه الله تعـالى: (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)﴿النور/٦١﴾

أفرد الخطاب في (كذلك)؛ ليصلح لكل مخاطب.

وتحريم التعدي على ما أحله الله إلى غيره من المحرمات، في قوله تعالى: (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) ﴿المعارج/٣١﴾

أفرد الخطاب مراعاة للفظة (مَن)، وللإشارة إلى أن ما ذكر كاف لكم جميعا، فمن لم يكتفِ بـه، وتاقت نفسه إلـى غيره، فقد خرج عن الجادَّة، وتجاوز الحلال إلى الحرام.

**خامسا- التدبر و التفكر في خلق الله:**

قـال الله تعـالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (يونس/٥).

أي ما ذكر من الشمس والقمر عَلى ما حُكي من الأحوال[1]، والخطاب لكل مخاطب، ولذلك أفرد، و فيه حث على التفكر في خلق الله، ولما كان شكر

(1) تفسير أبي السعود ١٢١/٤.

النعم العظيمة العامة للناس جميعا مظنة الغفلة والنسيان من الإنسان خوطب كل فرد بقوله:(ما خلق الله ذلك) ولم يقل: ذلكم.

وقال تعالى: (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ﴿البقرة/٢٤٢﴾، إفراد الخطاب في (كذلك) للتحفيز على فهم الآيات، ولاسيما بعد بيانها وإيضاحها، و دخول كاف التشبيه على اسم الإشارة لتحقيق المعنى وتثبيته، و قد استغرق المعنى الكائن في المشار إليه جميع اللفظة، فمهمة كاف الخطاب هنا زيادة تنبيه المخاطب إلى مكانة المشار إليه وأهميته.

وقال تعالى: (وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) ﴿البقرة/٢٦٦﴾.

قد يكون إفراد الخطاب لكل مخاطب على حدته؛ ليكون أدعى للتفكير، أو يكون إشارة إلى قلة من يتفكر فيه، ولذلك روي"عن الحسن(رضي الله عنه) : هذا مثلٌ قلّ والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا" [١].

(١) الكشاف ٣١٤/١.

## المبحث الخامس

## إفراد الخطاب وجمعه في المقام الواحد، ودلالاته

### أولا- إفراد الخطاب وجمعه في مقام التوحيد:

معنى توحيد الله تعالى إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتًا وصفاتٍ وأفعالًا.[1] و نلحظ اختلاف حرف الخطاب اللاحق باسم الإشارة إفرادًا وجمعًا، وذلك في مقام توحيد الله تعالى، فيأتي الخطاب مفردًا في الحديث عن دلائل قدرة الله تعالى، أو ربوبيته تعالى كقوله تعالى:( قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (فصلت/٩)، في حين يأتي مجموعًا في الحديث عن الألوهية، ولا سيما إذا أتبعه اسم الجلالة، (ذلكم الله)، فلم يأت في القرآن الكريم كله (ذلكَ الله)، ولكنه جاء في مقام تشبيه أمر عجيب بما هو أعجب منه، لبيان طلاقة القدرة الإلهية، وذلك في موضعين: الأول : في خطاب سيدنا زكريا-عليه السلام، في قوله تعالى:( قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (آل عمران/٤٠)

والآخر: في خطاب مريم عليها السلام في قوله تعالى:( قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (آل عمران/٤٧)، وقد سبق التعليق عليهما.

(أ)- الإفراد في مقام دلائل قدرة الله و ربوبيته تعالى :

---

(1) ينظر: تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد ،إبراهيم الباجوري، ص١٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١٤٠٣،١ه/١٩٨٣م.

فكونه–سبحانه– ربًا لا يكاد ينكره عاقل، لأن دلائل ربوبيته مبثوثة في الكون كله، وفي نفوس العبيد، والخلق أجمعين، فلم يكن ثمة داع لجمع المخاطب، واكتفى بالإفراد.

كما أن إفراد الخطاب مناسب لطريق العبد إلى اليقين بربوبيته تعالى؛ من حيث التأملُ والنظر في خلق السماوات والأرض، وتأمُّل الفرد بعيدا عن مؤثرات الجماعة أولى في هذا المقام.

ولله در الشاعر[١] حين قال:

تأملْ في نباتِ الأرض وانظُر .. إلى آثارِ ما صنعَ المليكُ .

عيونٌ من لُجَينٍ شاخصـــاتٌ .. بأحداقٍ هي الذهب السبيكُ .

على قُضُبِ الزبرجدِ شاهداتٌ .. بـــأنَّ اللهَ ليس له شريـكُ .

في حين أن جمع الخطاب في مقام الألوهية أولى؛ لأن طريقه العبودية، وهي حق الله على العباد جميعا، وهي مع الجماعة أنسب وأحسن وأسلم .

فَيا عَجَباً كَيفَ يُعصى الإِلَهُ... أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ ... تَـــدُلُّ عَلـــى أَنَّهُ واحِدُ

وَلِلَّهِ في كُلِّ تَحريـــــــــكَةٍ ... وَتَسكينَةٍ أَبَداً شاهِدُ[٢]

---

(١) نسبت إلى أبي نواس كما في كتاب مجموعة من النظم والنثر للحفظ والتسميع،١٤٤،القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٨م.

(٢) قصيدة لأبي العتاهية، من بحر المتقارب، وهي في ديوانه ١٢٢، دار صادر، وقد نسبها ابن كثير لابن المعتز، ولم أجدها في ديوانه، ينظر: تفسير ابن كثير ١٣٣/١، ٢٦٦/١٩٨،٥.

(ب)- جمع الخطاب في مقام الإشارة إلى ألوهيته تعالى في الآيات الآتية:

- (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ **ذَلِكُمُ** اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (الأنعام/٩٥)
- (**ذَلِكُمُ** اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ) (الأنعام/١٠٢)
- (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ **ذَلِكُمُ** اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (يونس/٣).
- (**فَذَلِكُمُ** اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) (يونس/٣٢).
- (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ **ذَلِكُمْ** خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (العنكبوت/١٦)
- (هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ **ذَلِكُمْ** مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الروم/٤٠)
- (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى **ذَلِكُمُ** اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ ) (فاطر/١٣)
- (**ذَلِكُمُ** اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ) (الزمر/٦)
- (**ذَلِكُمْ** بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ) (غافر/١٢)
- **ذَلِكُمُ** اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ) (غافر/٦٢)
- (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ **ذَلِكُمُ** اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ) (غافر/٦٤).
- وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ **ذَلِكُمُ** اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (الشورى/١٠).

ومما سبق نلحظ الآتي:

أولا- مجيء الخطاب جمعا مطابقا للمخاطبين في جميع الآيات؛ لمناسبة الحديث عن ألوهية الله تعالى؛ إذ إن مخاطبة الجميع بالعبودية لله تعالى دليل على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية، وإن ادَّعاها أفَّاكون.

كما أن طريق هذا هو التعبد لله تعالى، وهو في جماعة المسلمين أولى و أسلم.

ثانيا- جاء لفظ (ذلكم) هكذا بالجمع في مقام التوحيد في السور المكية؛ فوقع قوله:(ذلكم الله)، في تسع آيات، في السور الآتية: (الأنعام، ويونس، وفاطر، والزمر، وغافر، والشورى)، وكلها مكية، وهذا مناسب لخصائص الفترة المكية، وما نزل فيها من القرآن الكريم، مما يدعو إلى التوحيد الخالص لله تعالى، وترسيخ قواعده و أسسه في نفوس الناس.

كما وقع (ذلكم) في السور الثلاث الأخريات (العنكبوت، والروم، وغافر/١٢)، و هي مكية أيضا، وسياقاتها كلها في ألوهيته تعالى؛ فالإشارة في آية العنكبوت إلى عبادة الله وحده وتقواه، والإشارة في آية الروم إلى قضية الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وكلها لله تعالى وحده، والإشارة في آية(١٢) في سورة غافر إلى العذاب الذي استحقه المشركون بسبب شركهم.

وقد يأتي الخطاب للمفرد ردا على المشركين، كما في قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (لقمان/٣٠).

الخطاب في (ذلك) إلى كل مخاطب بهذا الكتاب العزيز، وقد يكون الخطاب للمشركين، ويؤكده استمرار الخطاب لهم في قوله:( وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) على قراءة (تدعون) بالتاء[١]

و في مقام ضرب الأمثال لإقامة الحجة على المشركين، وبيان عظيم جُرْمهم في عبادة غير الله تعالى، كما في قوله جل شأنه: (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ﴿الروم:٢٨﴾ . أي: كما بيَّنا لكم أيها القوم حججنا في هذه الآيات من هذه السورة على قدرتنا على ما نشاء من إنشاء ما نشاء، وإفناء ما نحبّ، وإعادة ما نريد إعادته بعد فنائه، ودللنا على أنه لا تصلح العبادة إلا للواحد القهار، الذي بيده ملكوت كلّ شيء كذلك نبين حججنا في كل حقّ لقوم يعقلون، فيتدبرونها إذا سمعوها، ويعتبرون فيتعظون بها[٢].

---

(١) قِرَاءَةِ نَافِعٍ وَابْنِ كَثِيرٍ وَابْنِ عَامِرٍ وَأَبِي بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ وأبي جعفر (تدعون) بالتاء على الخطاب، وقرأ (يدعون) بالياء على الخبر أبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف، ينظر: السبعة لابن مجاهد ٤٤٠، والنشر لابن الجزري ٣٢٧/٢.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ٩٦/٢٠.

فقوله:(كذلك) كَافُ الْخِطَابِ مُوَجَّهَةٌ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ، أَيْ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ هَذَا الْخَبَرَ[١]، وإفراد الخطاب إشارة إلى قلة من يفقه هذا المثل القرآني، (وهو أسلوب حض على التفكر)، كما في قوله تعالى: ( وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ) (العنكبوت/٤٣).

**ثانيًا- إفراد الخطاب وجمعه في مقام الوعظ.**

الوعظ : هو التذكير بالخير والتحذير من الشر بترغيب أو ترهيب، وهناك مواضع آثر السياق فيها إفراد الخطاب، وأخرى جاءت بخطاب الجمع، على النحو الآتي:

الموضع الأول: قوله تعالى: { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة/٢٣٢).

والثاني: قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) ﴿المجادلة/٣﴾.

والثالث: : قوله سبحانه: { فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} (الطلاق/٢).

وفي هذه الآيات أربع ملحوظات:

---

(١) السابق٢٧/٣٤٨.

الأولى: أفرد الخطاب– في آية البقرة– في قوله: {ذلك يوعظ} مع أن الخطاب للجمع، حيث قال في بداية الآية: {وإذا طلقتم النساء}. في حين أنه جُمع في سورتَي المجادلة و الطلاق موافقاً للمخاطبين، فقال في المجادلة: (ذلكم توعظون) وفي سورة الطلاق: {ذلكم يوعظ}.

الثانية: ذكر في آية البقرة قوله: {منكم}، في حين لم يذكر في آية سورة الطلاق، فقال: {يوعظ به من كان يؤمن}.

و قد وجه ذلك ابن الزبير الغرناطي(٧٠٨هـ): أن المنهي المتوعد عليه في سورة البقرة أبلغ من التعدي، وأسوأ في المرتكب من الواقع عليه الزجر في آية الطلاق، ومن المعلوم أن المطلب إذا صعب التزامه، كانت السلامة فيه أعز، وسالك طريق النجاة فيه أقل، والخطاب وإن عمَّ فأولى المخاطبين بأهليته، إنما هم الممتثلون لمراده، وكأن غير الممتثل غير داخل تحت الخطاب، فمراعاة لهذا الملحظ، ورد إفراد الخطاب في آية البقرة، فقيل: {ذلك} بحرف الخطاب الذي للواحد؛ إشارة لتقليل المستجيبين المتورعين عن الطمع في أموال الزوجات والإضرار بهن عضلاً أو احتيالاً على ما لديهن؛ ومراعاة لهذا أيضاً، ورد في هذه الآية {منكم} المشعر أن المستجيبين ليسوا الكل بما يعطيه مفهوم {منكم}. ولما كان الوارد في آية سورة الطلاق أخف في المطلب، وأيسر في التكليف، حيث إن الأحكام المتعلقة بالطلاق، والتي دارت عليها آيات هذه السورة كلها فروع ثوان، فالسلامة فيها أيسر، وسالك طريقها أكثر، فناسب ذلك ورود الخطاب بالحرف الذي يُخاطب به الجميع، ويشملهم، فقيل: {ذلكم}، وقيل: {من كان يؤمن}، ولم يقل هنا: {منكم}، فلم

يَرِدْ هنا إشعارٌ بـ (البعضية)، وهو الذي يفيده مفهوم {منكم}، فرُوعي في كل من السورتين ما بنيت عليه القصة في الأخرى[١].

الثالثة: جمع الخطاب في (ذلكم) و (توعظون) معا في سورة المجادلة، في حين لم يجمع في (يوعظ) في البقرة والطلاق.

لأن آية المجادلة في حكم الظهار، و آيتي البقرة والطلاق في أحكام الطلاق، وقد ذكر من الكفارة في الظهار عتق رقبة، وهو مالم يذكر في الطلاق.

الرابعة: اكتفت سورتا البقرة والطلاق على الخطاب اللاحق باسم الإشارة، ووقع الفعل (يوعظ) على الغيبة، في حين وقع الخطاب في اسم الإشارة والفعل كليهما في سورة المجادلة.

وارتأى الآلوسي أن "ذلِكَ إشارة إلى ما فصل، والخطاب للجمع، على تأويل القبيل، أو لكل واحدٍ واحدٍ، أو أن الكاف تدل على خطاب قطع فيه النظر عن المخاطب وحدة وتذكيرا وغيرهما.

والمقصود الدلالة على حضور المشار إليه عند مَن خوطب للفرق بين الحاضر والمنقضي الغائب، أو للرسول- صلى الله تعالى عليه وسلم- ليطابق ما في سورة الطلاق، وفيه إيذان بأن المشار إليه أمر لا يكاد يتصوره كل أحد، بل لا بد لتصور ذلك من مؤيّد من عند الله تعالى"[٢]

---

(١) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لابن الزبير الثقفي الغرناطي، ٦٨، وضع حواشيه: عبد الغني الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٢) روح المعاني ٥٣٩/١

والإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما فصل من أحكام وما أمر به من أفعال والخطاب لكل من يصلح للخطاب من المكلفين.

وخصص الوعظ بالمؤمنين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به، وترق معه قلوبهم، وتخشع له نفوسهم.

وأتى- سبحانه- بضمير الجمع ذلِكُمْ، بعد أن قال في صدر الجملة: (ذلِكَ) للإشارة إلى أن حماية المرأة من الهوان ومنع التضييق عليها في اختيار زوجها واجب على جميع المؤمنين، وأن فائدة ذلك ستعود عليهم جميعا، ما دام هذا الاختيار في حدود الآداب التي جاء بها الإسلام"[1]

ويمكن أن يكون الإفراد مراعاة لطريقة الوعظ، وأن الأولى في مثل هذه الحالات أن يوعظ ولي المرأة منفردا؛ حتى لا تأخذه الحمية إن وعظ في الجماعة، وأيضا مراعاة للفظ(من) و(منكم)

ثم جمع الخطاب بعد الانتهاء من الوعظ؛ لتوقع حصول التزكية والتطهر وتنقية السريرة لدى الأولياء .

وقال تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ) ﴿المؤمنون/١٥﴾ أفرد الخطاب في (ذلك) بعد جمعه في قوله:(إِنَّكُمْ)؛ لاختلاف أحوالهم في الحياة الدنيا، وتفاوتهم في الألوان والطبائع والأعمار، ثم إذاهم بعد انتقالهم متساوون في الحقيقة الكبرى، وهي الموت.

وأيضا لينبه المخاطب إلى النظر في ذاته ومآله، ليكون الخطاب أشد تأثيرا في النفس من اندراجه في الجملة.

---

([1]) التفسير الوسيط لطنطاوي ١/٥٢٤.

وقال تعالى: (تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) ﴿النساء/٩٤﴾ أفرد الخطاب في (كذلك) مع أن المخاطبين جمع؛ لمناسبة المفرد لحالة الخفاء التي كانوا عليها قبل الإسلام، ولمناسبة سبب النزول، سواء أكان نزولها في نفر من أصحاب النبي ﷺ عندما قتلوا رجلا من بني سليم، كما أخرجه أحمد، أم في أسامة بن زيد.

كما أن في إفراد الخطاب زيادة مبالغة في الزجر والتنبيه على خطئهم.

وقوله تعالى:( تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿القصص/٨٣﴾.

أفرد الخطاب في (تلك)، وهي موعظة بليغة لكل من طغى وتكبر، وظن أنه في مأمن بماله أو جاهه أو سلطانه أو عشيرته أو غير ذلك، لأنه يدخل إلى بوابة الآخرة وحيدا فريدا.

**ثالثا- إفراد الخطاب وجمعه في مقامَي الوعد والوعيد:**

**(أ)- في مقام الوعد:**(تلكم) اسم إشارة مبني على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع مبتدأ ... و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب و (الميم) لجمع الذكور[١].

وقد ورد (تلكم) في القرآن مرة واحدة، وهو قوله تعالى:(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا

(١) الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود صافي،٤١٤/٨، دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت
الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ.

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأعراف/٤٣).

أي: ونادى منادٍ هؤلاء الذين وصف الله صفتهم، وأخبر عما أعدّ لهم من كرامته: أنْ يا هؤلاء، هذه تلكم الجنة التي كانت رسلي في الدنيا تخبركم عنها، أورَثكموها الله عن الذين كذبوا رسله، لتصديقكم إياهم وطاعتكم ربكم[1]

وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْجَنَّةِ بِ تِلْكُمُ، الَّذِي حَقُّهُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي الْمُشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيدِ، مَعَ أَنَّ الْجَنَّةَ حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِمْ، لِقَصْدِ رِفْعَةِ شَأْنِهَا وَتَعْظِيمِ الْمِنَّةِ بِهَا[2].

وقد جاء الخطاب هنا للجميع، لأنه عام لأهل الجنة جميعا، وقد خوطبوا به بعد دخولهم الجنة، والإشارة هنا مع خطاب الجمع هو النداء نفسه الصادر لهم من كل مكان في الجنة، فكلما التفتوا سمعوه، فهم متلبسون بها، تلبس ميم الجمع بكاف الخطاب، وليس له نظير في القرآن الكريم.

وأما في قوله تعالى:( تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا)(مريم/٦٣) فهذا إخبار عنها قبل دخولهم، والإشارة هنا إلى الجنة الموصوفة قبل ذلك.

فلما لم يكن ثمة اجتماع في الجنة اكتفي بالإشارة والخطاب للمفرد؛ ليعمل لها كل من يسمع الخطاب.

وفي قوله تعالى: (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿الزخرف/٧٢﴾، جاء الخطاب مفردا، لمناسبة اختلاف كل واحد منهم في العمل، والميراث من جهة، فلكل واحد من أهل الجنة جنة خاصة، واختلافهم

---

(١) تفسير الطبري ١٢/٤٤٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٨ب/١٣٤.

في المشتهيات من جهة أخرى، " ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى تَرَكَ التَّفْصِيلَ وَذَكَرَ بَيَانًا كُلِّيًّا، فَقَالَ: (وَفِيها مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ).ثُمَّ قَالَ:( وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[١]

" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَلَقَ اللَّهُ لِكُلِّ نَفْسٍ جَنَّةً وَنَارًا، فَالْكَافِرُ يَرِثُ نَارَ الْمُسْلِمِ، وَالْمُسْلِمُ يَرِثُ جَنَّةَ الْكَافِرِ[٢].

وقوله تعالى: ( فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)(الفتح/٢٧)، خطاب للنبي ﷺ.

وقد امتن الله عليه في سورة الفتح بصلح الحديبية، ثم وعده بعد ذلك بفتح مكة.

وقوله تعالى: (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) ﴿المطففين/٢٦﴾، وَفِي ذلِكَ إشارة إلى النعيم المذكور، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو مرتبته وبعد منزلته، وإفراد الخطاب لكل مخاطب، إلهابا لهمة المتنافسين؛ لما في الأمر بالمنافسة من معنى السبق والتفرد.

وقوله تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(آل عمران/١٠٤)؛ لان المخاطب كل من يصلح للخطاب[٣].

{وَأُوْلَئِكَ} إشارةٌ إلى الأمة المذكورة باعتبار اتصافِهم بما ذُكر من النعوتِ الفاضلةِ وكمالِ تميُّزِهم بذلك عمنْ عداهم وانتظامِهم بسببه في سلك الأمور

---

(١) تفسير الرازي٢٧/٦٤٢.

(٢) تفسير القرطبي١٦/١١٥.

(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ١/٧٣، دار الفكر – بيروت .

المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو طبقتِهم وبُعدِ منزلتِهم في الفضلِ والإفرادُ في كاف الخطابِ إما لأن المخاطَب كلُّ من يصلُح للخطاب وإما لأن التعيينَ غيرُ مقصودٍ أي أولئك المتصفون بتلك الصفاتِ الكاملة[1]

**(ب)- جمع الخطاب وإفراده في مقام الوعيد**

قوله تعالى: (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)(آل عمران/١٨١،١٨٢).

واسم الإشارة ذلِكَ يعود إلى العذاب المحقق المنزل منزلة المحسوس المشاهد[2]. وللإشارة إلى عظم شأنه، وبعد منزلته في الهول والفظاعة، أتى باسم الإشارة مقرونا باللام والكاف[3].

وخوطبوا بالإفراد في (ذلك) للتقليل من شأنهم، والتحقير من جمعهم، والدلالة على ضآلتهم بعد توعدهم بعذاب الحريق، فلا اعتداد بجمعهم بعد ذلك العذاب المحرق، وقد ورد نظيرها في الأنفال، وجاءت بعد عذاب الحريق كذلك في قوله تعالى:(وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا۟ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ.ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)(الأنفال/٥٠،٥١)، وَاسْمُ الْإِشَارَةِ ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ إِلَى مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْعَذَابِ، وَجِيءَ بِإِشَارَةِ الْبَعِيدِ لِتَعْظِيمِ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْأَهْوَالِ[4] .

---

(1) ينظر: تفسير أبي السعود ٦٨/٢.

(2) التفسير الوسيط٣٥٧/٢.

(3) روح المعاني٣٥٣/٢.

(4) التحرير والتنوير ٤١/١٠.

وفي قوله تعالى:( ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) (الحج/١٠،٩).

ولا إشكال في موضع الحج؛ فالسياق فيه على الإفراد.

قوله الله تعالى: (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) ﴿الحج /٧٢﴾

وقال تعالى: (هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ) ﴿المائدة /٦٠﴾

والإشارة في (ذلكم) إلى ما فيهم من غيظ على التالين وسطوهم عليهم أو مما أصابهم من الضجر بسبب ما تلي عليهم، وجمع الخطاب-هنا في الحج، لحصول الغيظ والضجر لهم جميعا عند تلاوة القرآن، أو لشمولهم بالتهديد والوعيد بالنار، فهو يشير إلى شدة ما تحويه صدورهم من الغيظ والضجر عند تلاوة القرآن عليهم، كما يشير الجمع إلى اجتماع قلوب الكافرين على هذا الغيظ ، كما أن هذا الجمع مناسب لنداء الناس في مطلع هذه السورة ومنتهاها.

والإشارة- في آية المائدة -إلى الدين المتقوم لهم، واعتبرت الشرّية بالنسبة إليه- مع أنه خير محض منزه عن شائبة الشرّية بالكلية- مجاراة معهم على

زعمهم الباطل المنعقد على كمال شرّيته[1]، وحاشاه ليثبت أن دينهم شر، من كل شر... ووحد الاسم إما لأنه يشار به إلى الواحد وغيره، وليس كالضمير، أو لتأويله بالمذكور ونحوه[2].

وَالْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ مِنْ ذلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ فِي قَوْلِهِ: هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ إِلَخْ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ مَنْقُومٌ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ. وَالتَّقْدِيرِ: وَلَمَّا كَانَ شَأْنُ الْمَنْقُومِ أَنْ يَكُونَ شَرًّا بُنِيَ عَلَيْهِ التَّهَكُّمُ فِي قَوْلِهِ: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ، أَيْ مِمَّا هُوَ أَشَدُّ شَرًّا[3]

و قد يكون إفراد الخطاب في (ذلك) خطابا للنبي ﷺ، ويرشحه الأمر في (قل)، أو لبيان ما هم عليه من الضلال، إذ لو خلا كل واحد منهم بنفسه، وانفرد كل منكم لتبين له الحق.

---

(1) وقيل: إنما قال: (بِشَرٍّ) لوقوعه في عبارة المخاطبين، فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير، وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أتى النبي صلّى الله عليه وسلّم نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ونافع بن أبي نافع وغازي بن عمرو وزيد وخالد وإزار بن أبي إزار فسألوه عليه الصلاة والسلام عمن يؤمن به من الرسل قال: أومن بالله تعالى وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، فلما ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به، ثم قالوا- كما في رواية الطبراني- لا نعلم دينا شرا من دينكم، فأنزل الله تعالى الآية، وبهذا الخبر انتصر من ذهب إلى أن المخاطبين- بأنبئكم- هم أهل الكتاب. ينظر :روح المعاني٣/٣٤١.

(2) روح المعاني٣/٣٤١

(3) التحرير والتنوير٦/٢٤٥.

وفي ذلك دعوة لهم إلى طريق الحق، وترك ما كان عليه آباؤهم من الكفر والعناد، فقد كان جزاؤهم ما قد علمتم من العقاب الدنيوي، وتوعدهم بالعذاب في الآخرة.

كما أن إفراد الخطاب مناسب لمقام الدعوة؛ لاستمالة قلوبهم إلى هذا الدين القويم، بدليل أنه قال بعد ذلك:( وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..إلخ الآيات)

قال الله تعالى: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿النساء/ ١٣٣﴾ أي: وَكَانَ اللَّهُ عَلَى إِهْلَاكِكُمْ وَإِفْنَائِكُمْ، وَاسْتِبْدَالِ آخَرِينَ غَيْرِكُمْ بِكُمْ قَدِيرًا[١].

وفي إفراد الخطاب في(ذلك) إشارة إلى تلاشي جمعهم، وإحكام قبضة القدرة عليهم، كنفس واحدة.

وقال تعالى: (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) ﴿هود/٦٥﴾

الخطاب لقوم صالح، وإفراد الخطاب في (ذلك) ليكون أبلغ في الوعيد، و زيادة في الترهيب؛ فلا يكون لجمعهم حينئذ فائدة، ولا يمنعهم من العذاب مانع.

وقوله تعالى: ( وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ )﴿الفتح/١٢﴾. أفرد الخطاب لاجتماع قلوبهم عليه.

---

(١) تفسير الطبري٧/٥٨١.

وقال تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ) ﴿التغابن/٩﴾

أفرد الخطاب في (ذلك) للدلالة على إحكام الجمع، وقوة السيطرة والاستحواذ عليه، كأنهم نفس واحدة، كما قال سبحانه:( مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) (لقمان/٢٨).

**رابعًا- خطاب المدعُوّين بين المطابقة والعدول:**

قال الله تعالى:( وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (البقرة/٢٤٨)

الإشارة هنا في (ذلك): إتيان التابوت بني إسرائيل، وفيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة[١].

وأفرد الخطاب في اسم الإشارة (ذلك)، ولم يجمعه كما في قوله:(لكم)، مع أن نبيهم (أشمويل) يخاطب قومه من بني إسرائيل؛ لاستغراق اسم الإشارة معنى الكلام؛ فما يحمله المشار إليه من دلالة هو مطلوب المخاطب، وليس ثمة لبس في إفراده؛ لأن قرائن الجمع تكتنفه من بين يديه ومن خلفه.

وللدلالة على وضوح هذه الآية وشدة ظهورها، بحيث لا يختلف عليها أحد، فمجيئها لكم خليق باجتماعكم على قلب رجل واحد، فكأن المخاطب بها واحد، فهي تتجلى له عيانا، لا يخفى عليه شيء منها، ولا يحول بينه وبينها كثرة المتزاحمين عليها، إن كنتم مصدقيَّ فيما أخبرتكم به، ولكن هيهات هيهات فقد كذبوه فيما أخبرهم به من تمليك الله إياه عليهم قبل ذلك، ومن ثم

(١) ينظر: تفسير الطبري٥/٣١٦، باختصار.

فإنه أتبع خطابهم بما يفيد الشك في تصديقهم له، وهو قوله (لآية لكم إن كنتم مؤمنين).

قال الله تعالى: (وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (آل عمران/٤٩)، قوله:( إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ) من كلام عيسى عليه السلام حكاه الله تعالى عنه، وقيل: هو من كلام الله تعالى سيق للتوبيخ[١]، أي أن في ذلك المذكور من المعجزات التي أجراها الله- تعالى- على يد عيسى- عليه السلام- لدلالة واضحة وعلامة بينة تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه، إن كنتم يا بني إسرائيل ممن يصدق بآيات الله ويذعن لها[٢] .

وأفرد كاف الخطاب أولاً لكون ما عده ظاهراً لكل أحد على انفراده أنه آية لجميع المرسل إليهم، وكذا جمع ثانياً قطعاً لتعنت من قد يقول: إنها لا تدل إلا باجتماع أنظار جميعهم – لو جمع الأول، وإنها ليست آية لكلهم بل لواحد منهم – لو وحد في الثاني[٣].

و أرى في إفراد الخطاب في (ذلك) إشارة إلى تركيز السياق على المشار إليه، وأنه يستغرق معنى الكلام، لما يحمله من دلالة عجيبة، ينبغي أن يلتفت إليها المخاطب.

ولبيان قلة من ينتفع بهذه الآيات البينات، رغم جلائها لكل ذي عينين، وهو مُوَجَّهٌ مِنْهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّهُمْ بَادَرُوا دَعْوَتَهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالشَّتْمِ.

---

(١) ينظر: روح المعاني ١٦٤/٢.

(٢) ينظر: التفسير الوسيط١١٥/٢.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٤٠٧/٤.

قال تعالى: (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (يوسف/٤٠)

الخطاب في (ذلك) لصاحبي يوسف –عليه السلام– وأفرد الخطاب، ولم يقل: (ذلكما) كما قال من قبلُ، إشارةً إلى وَحدةِ الطريق، و استقامة الصراط، مهما تكن كثرة السائرين فيه.

ولمناسبة الحديث عن التوحيد، ونفي الشريك، ناسب أن يعبر بكاف الخطاب اللاحقة باسم الإشارة، وكأنه منها، ولتكون جملة (ذلك الدين القيم) كالمثل الذي لا يُغَيَّر، فيتلقاه السامع الواعي، فيبلغه كما سمعه لمن بعده، وهذا في مجال الدعوة أوقع وأنفع .

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿المجادلة/١٢﴾.

لما كانت المناجاة خاصة بكل فرد على حدته، وأمْرُ الصدقة غير متاح لكل أحد جاء الخطاب في (ذلك) مفردا.

وإيثار إفراد الكاف في خطاب الجماعة للتأكيد على الأمر المشار إليه، وبيان الهدف منه، كما أشار الآلوسي إليه بقوله: " وفي هذا الأمر تعظيم الرسول صلّى الله عليه وسلم ونفع للفقراء وتمييز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا ودفع للتكاثر عليه صلّى الله تعالى عليه وسلم من غير حاجة مهمة"[1].

(1) روح المعاني١٤/٢٢٤.

وأما في قوله تعالى:( وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)(البقرة/٥٤) فالتوبة عامة لهم جميعا، وهم جميعا مشتركون فيها، حيث قتل بعضهم بعضا، كما ورد.

وفي قوله تعالى: (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(الأعراف/٨٥) .

خطاب لمدين قوم شعيب، والمأمور به فيها يقتضي الاشتراك و الجماعة، من إيفاء الكيل والميزان، وعدم بخس الناس حقوقهم، والنهي عن الإفساد في الأرض؛ فلما شاع الفساد فيهم لزم خطابهم جميعا؛ لتنبيههم إلى عظيم جرمهم.

وفي قوله تعالى: (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) (التوبة/ ٤١) خطاب للمجاهدين جميعا، ليكونوا يدا واحدة تجاه العدو.

وفي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النور/٢٧) خطاب للمؤمنين جميعا؛ لما لأدب الاستئذان عند دخول البيوت من آثار طيبة على المجتمع كله، ولما يترتب على تركه من سلبيات كثيرة على المجتمع كذلك.

وفي قوله تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) (العنكبوت/١٦) خطاب لقوم إبراهيم بالعبادة والشكر، وهذا الأمر لهم جميعا.

وفي قوله تعالى: (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (الصف/١١).

جمعُ الخطاب في (ذلكم) يتفق واسمَ السورة الكريمة (الصف)، فهذا الخطاب لجميع المؤمنين، كما يتسق وسياقَ السورة؛ حيث الحضُ على التصافّ والتعاون والتناصر في الحق، وذلك ظاهر في كثير من آياتها، كقوله:( إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوص) (الصف:٤)، وكقوله :( هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) (الصف: ٩)، وفي قوله: (تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ) من شمول الخير المؤمنين جميعا إذا هم تاجروا مع الله تلكم التجارة الرابحة.

وفي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (الجمعة/٩).

جمع الخطاب مناسب للاجتماع يوم الجمعة على الذكر من شمول الخير المؤمنين، إذا هم سعوا إلى ذكر الله وصلاة الجمعة عند النداء، وتركوا البيع حينئذ، لما قد يجيش في صدورهم من ضياع الخير بسبب ترك البيع، فإن الله يعوضهم، ويبارك لهم بسبب المحافظة على الذكر والصلاة، ونلحظ في مطابقة خطاب الجماعة وقوعَه بعد أمر ما تقوم به الجماعة معا، و لا يكتمل بالفرد وحده .

وذلك ظاهر في توبة بني إسرائيل، بقتل أنفسهم، وما أمر به قوم شعيب من أمور تتعلق بالمشاركة، و ما أمر به المؤمنون من النفر والجهاد في سبيل الله، وتحقيق الأمن النفسي والسلام والمحافظة على الأعراض، وستر

العورات، ودعوة إبراهيم –عليه السلام– قومه إلى عبادة الله وحده، وتقواه؛ بسبب انتشار عبادة الأصنام، واجتماعهم علي ذلك، و سعي المؤمنين جماعات إلى بيوت الله يوم الجمعة من أهم مظاهر قوة المسلمين واتحادهم.

وقال تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (الإسراء/٣٥).

الخطاب لكل فرد منهم، وهو مناسب للوزن بالقسط؛ إذ إن العدل يقتضي أن يصل الإعلان بهذا التكليف إلى كل واحد منهم على حدةٍ.

## الخاتمة

## ونسأل اللهَ تعالى حسنَها

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

ففي هذه الساعة المباركة من أول أيام التشريق لهذا العام ١٤٤٠هـ، وصلت إلى نهاية المطاف، حول هذا البحث الميمون المتعلق بكاف الخطاب المتصلة بأسماء الإشارة في القرآن الكريم، وما بين بداية الطواف ونهايته وقفات ووقفات، وجدتني في كثير منها عاجزا عن التعبير عن كُنْهِ ما غمرني من أنوار القرآن وأسراره، فاحترزت بأدب العبد مع جلال الرب، ولم يسعني إلا أن أردد قائلًا: سبحان من هذا كلامُه!

و قد توصل البحث إلى نتائج، تتلخص فيما يأتي:

**أولا**– ورد عن العرب ثلاث لغات في حرف الخطاب المتصل باسم الإشارة، وقد استعمل القرآن منها لغةً واحدةً، وهي المعروفة بالتصرف الكامل، لا لُغتين كما رأى بعضُ العلماء، وهذا بيانه:

من خلال استعمالات أسماء الإشارة مع كاف الخطاب في القرآن الكريم تبين ما يأتي:

١– ورد خطاب المفرد المذكر، مع لام البعد: (ذلك)، في(٣٩٠) تسعين وثلاثمائة موضعًا، منها (٤٤) أربعةٌ وأربعون موضعًا محتملةً خطابَ الجماعة، أي أن نسبة مطابقة خطاب المفرد في لفظ (ذلك) ٨٩% تقريبا، و نسبة لزوم (ذلك) الإفراد عند مخاطبة الجمع، أو بمعنى آخر عدوله عن الجمع إلى الإفراد ١١% تقريبا .

٢- ورد خطاب المفردة المؤنثة، مع اسم الإشارة المذكر، ثلاث مرات موافقة للمفردة المؤنثة.

٣- ورد خطاب المفرد، مع اسم الإشارة للمثنى المذكر: (ذانك) مرة واحدة.

٤- ورد خطاب المثنى مع اسم الإشارة المذكر البعيد: (ذلكما)، مرة واحدة.

٥- ورد خطاب جمع المذكر مع لام البعد :( ذلكم)، سبعا وأربعين مرة، كلها مطابقة لجمع المخاطبين.

٦- ورد خطاب جمع المؤنث مع لام البعد: ( ذلكن)، مرة واحدة.

٧- ورد خطاب المفرد مع اسم الإشارة لجمع المذكر والمؤنث : (أولئك)، أربعا ومائتي مرة (٢٠٤) مطابقة للمفرد، خطابا عاما لكل من يصلح للخطاب، وعلى رأسهم إمام المخاطبين بالقرآن سيدنا محمد ﷺ.

٨- ورد خطاب الجمع مع اسم الإشارة لجمع المذكر والمؤنث (أولئكم)، مرتين، وهما مطابقان للجمع.

٩- ورد خطاب المفرد المذكر مع اسم الإشارة للمفردة المؤنثة، وجماعة الإناث:(تلك)، إحدى وأربعين مرة، منها أربع مرات محتملة خطاب الجمع، أي أن نسبة مطابقة الخطاب في لفظ (تلك) ½ ٩٨% تقريبا، ونسبة لزوم الخطاب الإفراد، أو عدوله عن الجمع إلى الإفراد لا تتجاوز ½١%.

١٠-ورد خطاب المثنى مع اسم الإشارة للمفردة المؤنثة: (تلكما)، مرة واحدة .

١١-ورد خطاب جمع المذكر مع اسم الإشارة للمفردة المؤنثة: (تلكم)، مرة واحدة.

ونستنتج من هذا ما يلي :

(أ)- أن اللغة التي اعتمدها القرآن الكريم في كاف الخطاب المتصلة بأسماء الإشارة هي لغة (التصرف الكامل) ؛ حيث بلغت نسبة مطابقة المخاطب المفرد بنوعيه٩٢½ % تقريبا - بغض النظر عن نوع اسم الإشارة ، ونسبة المواضع المحتملة خطاب الجمع لا تتجاوز ٧½ %؛ وذلك لأن عدد المواضع الوارد فيها (ذلكَ وذلكِ وذانكَ و تلكَ وأولئكَ) =٦٣٩ موضعًا، والمواضع المحتملة لا تتجاوز ٤٨موضعًا.

(ب)- لا يخلو موضع من المواضع التي عدل فيها الخطاب من الجمع إلى الإفراد- من غرض بلاغي من أغراض النظم القرآني المعجز، كما جاء في البحث، وسألخصه بعدُ، وكأن خطاب المفرد هنا ذو دلالة مهمة للسياق.

(ج)- ليس معنى وقوع خطاب المفرد للجمع في بعض المواضع أن القرآن الكريم قد استعمل لغة التصرف الناقص في خطاب النوع ( المذكر والمؤنث) دون مراعاة العدد(المفرد والمثنى والجمع)؛ بدليل استعمال القرآن خطاب جماعة الإناث، ولَحَاق علامة التأنيث في قوله:( فذلكن) ولو جاء على هذه اللغة (التصرف الناقص) لقيل: (فذلكِ) بكسر الكاف!!

كما أن عدم وقوع (ذلكَ) بفتح الكاف في مخاطبة الأنثى، و المثنى لدليل على مخالفة اسم الإشارة (ذلك) للغة لزوم الإفراد والتذكير؛ إذ لو كان كذلك لخوطب الجميع بلفظ المفرد المذكر.

(د)- لم يقع حرف الخطاب اللاحق باسم الإشارة-في القرآن الكريم- مجموعا في خطاب المفرد؛ وذلك لأن الغرض من خطاب المفرد بما يخاطب به الجمع هو تعظيم المخاطب، وهذا المعنى لا يتفق مع معنى التنبيه الكائن في حرف الخطاب، كما لا يتناسب مع بعد المشار إليه.

**ثانيًا**- من دلالات خطاب النبيﷺ بالكاف المتصلة باسم الإشارة بيان أهمية الأمر، وعظمه، أو خصوصيته، وما فيه من مزيد الإكرام، وعظيم الإنعام، وتسليته  عما يلاقيه من كفر قومه وعنادهم.

**ثالثًا**- يمكن إجمال الأغراض التي من أجلها طابق الخطاب المخاطب المفرد المذكر، على النحو الآتي:

١- تعليم للمخاطب الأول بهذا القرآن الكريم، وهو رسول الله-ﷺ؛ لأنه المبلغ عن ربه، وفيه إشارة لطيفة إلى المخاطبين الآخرين أنِ(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

٢- خطاب كل مخاطب على حدتِه؛ ليهتمَّ بالأمر المشار إليه؛ وليعلمَ أنه المقصودُ بالخطاب، فتقوى عزيمته على العمل والاستجابة؛ حتى لا يظنَّ أنه مُلحق بهم، فلم يُعْبأْ به، أو أنه غير داخل في المخاطبين أصلا، فتنطفئَ جذوةُ هِمَّتِه، فيقعدَ مع القاعدين.

٣-خطاب المفردة المؤنثة هنا مقصود لإزالة ما في نفس المخاطبة من تعجب، أو دهشة، أو خوف؛ بسبب ما يحمله المشار إليه من قضاء إلهي عجيب، كما أن خطابها يرفع من مكانتها عند الله تعالى، وتزداد به شرفًا، وتزدان به بين قريناتها، وتكون بشارتها بالولد بعد ذلك فضلة.

**رابعًا**- بيان أثر المشار إليه في المخاطب، إما لعظمة المشار إليه، وإما لأهميته.

وهذا الأثر ظاهر في قوة اللفظ، وصوته، وجرس الميم وإحكام ضم الشفتين بها، دلالة على أثر المشار إليه في المخاطب، وشدة تعلقه وارتباطه به.

**خامسًا**- وقعت مطابقة جمع الخطاب اللاحق باسم الإشارة في مقام تعدد النعم، كما في خطاب بني إسرائيل، ومقام الحقوق واستيفائها، كما في كتابة الدين، و دلَّ على ما يأتي:

(أ)- للتنبيه إلى أمر عظيم، كما في توجيه الناس إلى العمل للآخرة، وعدم الاغترار بالدنيا.

(ب)- لتأكيد المشار إليه وتقريره، كما في أخذ الميثاق على النبيين.

(ج)- للإشارة إلى تلبس المخاطب بالمشار إليه، كما في خطاب أهل الجنة في الجنة.

**سادسًا**- وقع الخطاب مجموعا في (أولئكم)، في موضعين كل منهما في فئة من الكافرين المغرورين بقوتهم أو بجمعهم، لبيان أثر المشار إليه في المخاطبين، وخطاب الجمع هنا متناسب مع اسم الإشارة، كما أن لحاق حرف الخطاب بالمشار إليهم لَيدل على إحكام القبضة عليهم، والسيطرة على كيدهم، وإحباط مكرهم، وصوت ميم الجمع في الخطاب يوحي بشدة إحكام السيطرة عليهم.

**سابعًا**- رأى بعض العلماء أن (كم) الملحق باسم الإشارة (ذلكم) لا يكون إلا في كلام طويل، لمناسبة اللفظ الطويل له، وأرى أن (كم) حرف خطاب

للجماعة، لا علاقة له بطول الكلام، كما أن حذفها لا علاقة له بقصر الكلام، لوقوعها في آيات قصيرة موجزة، وحذفها من آيات طويلة.

**ثامنًا**– خطاب جماعة الإناث مقصود لبيان ضعفهن وشدة تأثرهن بالمشار إليه.

**تاسعًا**–احتكم بعض العلماء إلى السياق في توجيه إفراد الخطاب أو جمعه، كما صنع ابن الزبير الغرناطي والآلوسي أحيانا.

**عاشرًا**– من أهم دلالات إفراد الخطاب في اسم الإشارة عند مخاطبة الجماعة أمران:

(أ) الاهتمام بالمشار إليه؛ لأنه يحمل في طياته المعنى العجيب أو المهم الذي ينبغي أن يلتفت إليه المخاطب، وهذا على لغة من يستعمل اسم الإشارة (ذلك) مثل(هذا)، على الأصل، وكأنه لفظة واحدة .

(ب) العدول عن الجمع إلى الإفراد، وفي هذه الحالة تكون الكاف لخطاب المفرد، و يحدد السياق الغرض من هذا الإفراد، وعلى كلٍ فإن السياق يسلط الضوء على بعد المشار إليه، و أثره في المخاطب، وله دلالات خاصة بحسب السياق.

**حادي عشر**: وقع الخطاب مفردا و مجموعا في المقام الواحد، فجاء حرف الخطاب مفردا في الحديث عن ربوبية الله تعالى، وإفراد الخطاب مناسب لطريق العبد إلى معرفة الرب ﷻ؛ من حيث التأملُ والنظر في خلق السماوات والأرض، وتأمُّل الفرد بعيدا عن مؤثرات الجماعة أولى.

وجاء الخطاب جمعًا مطابقًا للمخاطبين في الحديث عن الألوهية في جميع الآيات؛ إذ إن مخاطبة الجميع بالعبودية لله تعالى دليل على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية، كما أن طريق هذا التوحيد هو التعبد لله تعالى، وهو في جماعة المسلمين أولى.

وفي مقام الوعظ وقع مفردا لقلة السالكين، أو لمراعاة أنسب الطرق في الوعظ، ووقع مجموعا لكثرة السالكين، ولأهمية المشار إليه، وأثره في المخاطبين.

وفي مقامي الوعد والوعيد وقع الخطاب في الوعد مفردا للنبيﷺ ، أو لخصوصية في المخاطب،

كما أن خطاب الجمع في الوعد لمطابقة المخاطب في جمعه وكثرته، وللدلالة على تحقق الحصول، كما في (تلكم الجنة) .

وإفراده في مقام الوعيد لقلة السالكين، و للدلالة على أن المشار إليه قد استغرق المعنى، وصار مهيمنا على جمعهم، وللإشارة إلى اجتماع قلوبهم، أو للتقليل من شأنهم، والتحقير من جمعهم، والدلالة على ضآلتهم؛ ليكون أبلغ في الوعيد، و زيادة في الترهيب؛ فلا يكون لجمعهم حينئذ فائدة، ولا يمنعهم من العذاب مانع. وللإشارة إلى تلاشي جمعهم، وإحكام قبضة القدرة عليهم، كأنهم نفس واحدة.

**ثاني عشر**: وقع إفراد الخطاب عند مخاطبة الجماعة في أربعة مقامات، وهي:

الأول– التذكير بالنعم، والمخاطب نوعان:

(أ) بنو إسرائيل .، (ب)– الخلق جميعا.

والثاني– الحض على وحدة الصف، والثالث– إفراد الخطاب في سياق التشريع.

والرابع– التدبر و التفكر في خلق الله. يمكن إجمال دلالاتها في الآتي:

١– خطاب النبي–ﷺ، ليقوى به قلبه، ويثبت به فؤاده، ولأنه المبلغ عن ربه.

٢– تركيز السياق على المشار إليه، وتسليط الضوء عليه، واستغراقه اللفظ كله؛ لكثرة استعماله مفردا، و لأمن اللبس.

٣– بيان اجتماع قلوبهم على المشار إليه.

٤– الإشارة إلى قلة السالكين.

٥– إكرام المخاطب و الإحسان إليه .

٦– بيان الفرق بين المذكور قبل الخطاب وبعده.

٧– وصول المخاطبين جميعا إلى غايتهم المأمولة، وهدفهم الواحد.

٨– دلالة على الوحدة التي يثمرها الرجوعُ إلى كتاب الله و سنة رسوله ﷺ .

٩– تعلق الحكم المشار إليه بالفرد الواحد، لا بالجماعة.

١٠–للإشارة إلى توحيد المقصد، ووضوح المنهج.

**ثالث عشر**: دلالات خطاب المدعُوّين بين المطابقة والعدول:

وقع الخطاب المتصل باسم الإشارة مفردا في مقام الدعوة للأغراض الآتية:

١– استغراق اسم الإشارة معنى الكلام؛ فما يحمله المشار إليه من دلالة هو مطلوب المخاطب، وليس ثمة لبس في إفراده؛ لأن قرائن الجمع تكتنفه من بين يديه ومن خلفه.

٢- الدلالة على وضوح المشار إليه و ظهوره، بحيث لا يختلف عليه اثنان، فهو خليق باجتماعكم على قلب رجل واحد، فكأن المخاطب بها واحد، فهو يتجلى له عيانا، لا يخفى عليه شيء منه، ولا يحول بينه وبينه كثرة المتزاحمين عليه.

٣- إشارة إلى تركيز السياق على المشار إليه، لما يحمله من دلالة عجيبة، ينبغي أن يلتفت إليها المخاطب.

٤- بيان قلة المنتفعين أو السالكين، رغم جلاء المشار إليه لكل ذي عينين،

٥- مناسبة الحديث عن التوحيد، ونفي الشريك، كما في قوله: (ذلك الدين القيم) كالمثل الذي لا يُغَيَّر، فيتلقاه السامع الواعي، فيبلغه كما سمعه لمن بعده، وهذا في مجال الدعوة أوقع وأنفع .

٦- خصوصية في المشار إليه يستدعي الإفراد، نحو المناجاة فهي خاصة بكل فرد على حدته، و الصدقة فهي خاصة بمن يستطيع إخراجها.

٧- التأكيد على الأمر المشار إليه، وبيان الهدف منه.

ووقع الخطاب المتصل باسم الإشارة جمعا في مقام الدعوة للأغراض الآتية:

١- الحرص على إبلاغ المخاطبين جميعا بالأمر؛ لما له من الأهمية.

٢- التنبيه إلى عظم المشار إليه.

٣- الحض على التعاون والتعاضد.

٤- مناسبة الاجتماع يوم الجمعة.

هذا، وما كان من توفيق فمن الله تعالى وحده، وما كان من خطأ فمني، وأسأل الله العفو عني، و و ألا يحرمني أجرَ الاجتهاد في فهم القرآن!

اللهم إنك تعلم ما في نفوسنا فأعطنا سؤلنا، ولا يخفى عليك شيء من أمرنا، فاسترنا بسترك الجميل، يا أرحم الراحمين!

وصلِّ اللَّهم على سيدِنا محمد، وعلى آله وصحبِه وسلِّم تسليما كثيرًا، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

## فهرس المصادر والمراجع


- القرآن الكريم- مصحف المدينة المنورة، برواية حفص عن عاصم.
- أثر السياق في النظام النحوي على كتاب" البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري" للدكتور نوح الشهري. طبع في أ م القرى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
- الإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم الأندلسي، تح: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- إحياء علوم الدين للغزالي، دار المعرفة – بيروت، ط.د.ت.
- أسرار العربية لابن الأنباري، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط: الأولى١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.
- البرهان في علوم القرآن ، للزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.
- البرهان في متشابه القرآن للكرماني، تح/عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.
- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس،١٩٨٤ هـ.
- تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، إبراهيم الباجوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- تفسير ابن كثير، تح: المحقق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ.
- تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط/٣،- ١٤٢٠ هـ
- تفسير الراغب، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب – جامعة طنطا، ط/١: ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.
- تفسير الطبري، تح/ أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م
- تفسير القرآن، للسمعاني، تح: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض – السعودية،ط: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للشيخ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة.
- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، تح : اوتو تريزل، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م
- الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود صافي ، دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ.
- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تح: د فخر الدين قباوة – الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م
- درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي، دراسة وتحقيق : د/ محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل

العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ط/١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان، ٤٤٩/٦، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط: الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م
- ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي، المحقق: رجب عثمان محمد – رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ١٤١٨ هـ– ١٩٩٨م.
- روح البيان، إسماعيل حقي، دار الفكر – بيروت .
- روح المعاني للآلوسي، تح/علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت،ط:١، ١٤١٥ هـ.
- زهرة التفاسير، لأبي زهرة، دار النشر: دار الفكر العربي.
- سنن الترمذي، تح/ أحمد شاكر وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر
- الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، الناشر: محمد علي بيضون، ط: الأولى ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
- فقه اللغة وسر العربية للثعالبي، تح: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- كذلك في القرآن الكريم، أحمد بدوي، مقال في مجلة الرسالة ، العدد ٨٨٠.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط:٣ – ١٤٠٧ هـ/٤٧٠.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، للكفوي، تح/ عدنان درويش، مؤسسة الرسالة.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني، وزارة الأوقاف– المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط: ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م.
- معاني القرآن للفراء، تح/أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط/١،
- المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري، تح: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال – بيروت

الطبعة: الأولى، ١٩٩٣

- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لابن الزبير الثقفي الغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية].
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي، تح/عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر، ط. د.ت.

## محتويات البحث


| الموضوع |
| --- |
| المقدمة |
| **التمهيد**<br>الكاف المتصلة باسم الإشارة بين التوصيف والتوظيف<br>استعمالات أسماء الإشارة مع كاف الخطاب في القرآن .<br>ما يختص به الخطاب اللاحق بأسماء الإشارة:<br>دلالة السياق وأثرها في الخطاب القرآني: |
| **المبحث الأول:** خطاب النبيﷺ بالكاف المتصلة باسم الإشارة ودلالاته |
| **المبحث الثاني:** مطابقة كاف الخطاب للمخاطب ودلالاته |
| خطاب المفرد بنوعيه ((ذلكَ – ذلكِ– تلكَ– ذانك– أولٰئك): |
| خطاب المثنى(ذلكما – تلكما) |
| خطاب جمع المذكر (ذلكم،تلكم،أولئكم) |
| خطاب جمع المؤنث |
| **المبحث الثالث:** موقف العلماء من إفراد كاف الخطاب في اسم الإشارة إذا خوطب به الجمع: |

| |
|---|
| **المبحث الرابع:** إفراد الخطاب في اسم الإشارة عند مخاطبة الجماعة ودلالاته |
| **المبحث الخامس:** إفراد الخطاب وجمعه في المقام الواحد، ودلالاته. |
| في مقام التوحيد |
| في مقام الوعظ |
| في مقامي الوعد والوعيد |
| خطاب المدعوين بين المطابقة والعدول |
| **الخاتمة** |
| **فهرس المصادر والمراجع** |
| **محتويات البحث** |